

الفردوس العقلي

لمشاهير الآباء القديسين

الحب الإلهي (١)

١٩٦٧

الله فردوس نفسي

وضع وتبويب وترجمة
القس
تادرس يعقوب



غبطة أبينا المعظم الأنبا كيرلس السادس
بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

بم أتكلم ؟!

تجاسرت لأتكلم عن « الحب الإلهى » ، فإذا بي أتكلم عن « الله » ، لأن « الله محبة » ١ يو ٤ : ٨ .

هكذا وجدت نفسى أتجاسر لأكتب عن أمور لا يسوغ لضمنى أن ينطق بها ، ولايقدر لسان أن يعبر عنها . لأنه من يقدر أن يفحص أعماق الله إلا روح الله (١ كو ٢ : ١٠ ، ١١) ؟ !...

ليعطنا روح الله أن تتلامس معه فى أعماق قلوبنا الخفية ، ويفتح عيوننا الداخلية ، حتى نقدر أن ندرك أبعاد الحب الإلهى غير المحدود ... تلك الأبعاد التى لا تعبر عنها كلمات أو حروف ، ولا تسجلها مقاييس ، بل حتى حـــركات القلب ذاته تغرق فى لجته وتسكر منه وتترنح ولا تدرى حتى بنفسها ... وكما يقول الرسول بولس « وأنتم متأصلون ومتأسسون فى المحبة (أى الله) حتى تستطيعوا أن تدركوا مع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعـــرفة حتى تمتلئوا إلى كل ملء الله » أف ٣ : ١٨ ، ١٩ .

† † †

† من شاء أن يتكلم عن محبة الله ، فهو يبرهن على جهله ، لأن الحديث عن هذه المحبة الإلهية غير ممكن البتة .

الشيخ الروحاني.

† ماذا أفعل ؟ ! إنني إنسان ، وأنطق بلغة بشرية ، لساني من الأرض ، لذلك ألتمس العفو من ربي ، فاني لا أستخدم تلك التعبيرات الخاصة بالروح من قبل الاستهتار ، بل لفقر مصادري الناجم عن ضعفي وطبيعة لساني البشرى .

ترأف علي يا رب . فانني لا أنطق بهذه الكلمات من قبيل الوقاحة ، بل لأنه ليس لدى إمكانيات غير هذه . ومع هذا فانني لست بقانع تماما بمعاني كلماتي . إنما أحلق متسامياً باجنحة فهمي .

يوحنا ذهبي الفم.

† عجيبة هي أيضا المحبة !! هي لغة الملائكة ، ويصعب على اللفظ ترجمتها .

المحبة إسم الله الكريم ، من يستطيع أن يفحصها أو يحدها ؟!!

† ليس من يقدر أن يخبر بمحبتك كما هي يا أبانا الصالح ، أولئك الذين أشرقت فيهم وهم لا يعرفون !!!

† ليس لنا يارب أن نتكلم من الذى لنا عن الذى لك . لكن أنت تتكلم فينا عنك ، وعن كل ما هو لك ، كما يحسن لك .

إخلط يارب قوة روحك فى كلامنا ليكون قدساً مقدساً بأذهان السامعين.

اشرق فيهم يا رب نور معرفتك ، لينظر ويعلم أولئك الذين هم فى حضنك مستورون .

† أرنى (يا الله) بلد الحب لأتكلم عنه كما يستطيع ضعفى .

افرح فى يا رب نعمتك برحمتك لأتكلم عنها .

إلهب قلوب محبيك فيخرجوا فى طلبها .

الشيخ الروحانى

† قال لى أخ إذا أشرقت على الرحمة الأبوية (المحبة الإلهية) ، وانذهل عقلى لهذه النظارة الإلهية ، أرى عقلى يغوص فى بحر الحياة ، وهو يسبح فى أمواج النور ، ويغطس ويخرج ويستنشق رائحة الحياة ، ويتجلى بالعظمة الروحية ويبتهج ... بما لا ينطق به .

† ما أجمل أن نتكلم عن حلاوة الله التى تحلى وتلذذ أنفس الأطهار ! !

ما ألذ الرائحة الطاهرة التى تفوح من ههنا ، وتغير النفس والجسد أيضاً ! !

هل شعرت بالنار الإلهية التى تنزل فى القلب ، وتنطلق فى الجسد كله والنفس ، وتشعل القلب ، فيطير من شدة احتراقها ، حتى أن الأرض من تحته تتقد ! ! . . .

هل أستطيع أن أصف لك اللذة التي تفوق الادراك ؟ ! !

† ليس طيباً وصالحاً مثل إلهنا . لايعادل حلاوة معرفته لذة ، ذلك الذي حدثني عنها انسان فقال لي :

إنني إذ طرت وتعاليت إلى فوق لم أقدر أن أفحصها ، وإذ غرقت إلى أعماقها لا أدركها ، لم أحدد عرضها وطولها ! !

الشيخ الروحاني

† إلهي ... ترى أين أجد لساناً يقدر أن يعبر عن المجد اللائق بك من أجل نعمك المجانية ؟ !

خلقتني إذ لم أكن ، وأوجدتني بإرادتك . ومن قبل أن أوجد ، كان لك المجد اللائق بعظمتك .

إلهي ... أنت بذاتك هو المجد الحقيقي ، فليس لي إذاً أن ادعو خليقتك لتخبر بعظائمك .

القلب يصغر عن أن يحوي عظائمك ، والنطق يعجـــز عن أن يحدها ، والسمع لايقدر أن يدركها ...

هذه كلها تفنى ، أما عظائمك فباقية إلى الأبد ...

الفكر له بدايته ونهايته ، والصوت لايلبث أن يتبدد صداه ، .

تسمعه الأذن ثم لايلبث أن ينتهى ، أما عظمتك فباقية إلى الأبد .

ترى من يقدر أن يسبحك ويمجدك كما يليق بعظمتك ؟ ! لذلك أعود فأكرر أن مجدك دائم لايتغير ...

أيها المجد الأبدى ، يا الله إلهى ، ينبوع كل مجد راسخ ، بدونك أعجز عن أن أمجدك . لأن خارجاً عنك ليس إلا المجد الباطل .

إذاً ، أسرع إلى فأمجدك !

حقيقة ، من أنا حتى أرفع اسمك ؟ ! أنا لست إلا تراباً ورماداً ، كلباً ميتاً ونتناً ، دودة حقيرة ، جثة هامدة قابلة للفساد ...

نعم ، من أنا حتى أمجدك ، أيها السيد الفائق ، الملك الأبدى ، الله ، الذى نسمة فمه أفضل آلاف المرات من الكائنات الأرضية .

فهل للظلمة أن تمجد النور ، أم الموت يسبح الحياة ؟ ! ...

يا الله إلهى ، تمجد أنت بحسب قدرتك ، ولا نهائية حكمتك ، واتساع حنانك .

تمجد فى رحمتك الحقيقية ، وعطفك اللانهائى ، وكمالك الأبدى ، وعظمة لاهوتك .

تمجد فى جلال قدرتك الفائق ، ومحبتك المترفقة التى دفعتك لخلقتنا

يا الله إلهى ، يا حياة قلبى .

اغسطينوس

† تطلع معى حكمة بولس ، كيف كان يبحث عن عبارات يوضح بها لنا عن لطف الله ! ! لأنه لم يقل بمجرد كلمة « نعمة » أو « غنى » بل قال « غنى نعمته الفائق باللطف علينا » أف ٢ : ٦ ، ٧ . بل ومع هذا لازال تحت العلامة (أى لا تقدر العبارات مهما بلغت أن تعبر عنها كما هى) ، وذلك كمن يقبض بأيد كثيرة على جسم ذلج فيفلت منا ، هكذا نعجز عن أن نقبض على الحب الإلهى المترفق مهما بلغت العبارات التى نحاول أن نلحق به . فعظمة حنو الله الفائقة تحير نطقنا .

هذا ما اختبره بولس نفسه ، إذ رأى أن قوة الكلمات تعجز أمام عظمة حنو الله ، لذلك إكتفى بقوله ... « فشكراً لله على عطيته التى لا يعبر عنها » ٢ كو ٩ : ١٥ . لأنه لا يقدر كلام أو عقل ما أن يوضح اهتمام الله المتحنن . لهذا يقول أن التعبير عنه فائق ، وفى موضع آخر يقول « وسلام الله الذى يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم » فى ٤ : ٧ .

يوحنا ذهبى الفم

هكذا ، عند ماسئل الشيخ الروحانى عن سبب عدم كتابته عن الأسرار

المخفية ، قال بأنه يشبه صبياً صغيراً إذا ما دخـــل إلى بيت أبيه يقدم له أبوه كل ما هو ثمين ، وأما عندما يخرج إلى أصدقائه الأطفال فلا يعطيه إلا بعض الأمور البسيطة . . .

وهكذا – يا أخى – لا تتوقع فى هذا الكتاب أن تتمتع فيه بأعماق حب الله لى ولك ما لم تدخل إلى المخدع ، وتحول كلمات هذا الكتاب إلى صلاة . . . فتدخل معى إلى بيت أبينا الصالح وتكتشف بنفسك أسرار خزائن محبته التى لا أقدر أن أخرج بها إلى الخارج .. فلا يدركها ولا يتمتع بها إلا الذين يدخلون فى شركة معه .

أعود فأتوسل إليك – مع ذهبي الفم – ألا تقف عند حـــد تعبيرى الضعيف . . . مصلياً من أجلى وأجلك حتى نجتاز المفهوم العام للألفاظ ، وندرك بفاعلية الروح القدس فينا المفاهيم الروحية الحقيقية لكل كلمة تكتب عن « المحبـــة الإلهية » ، تلك المفاهيم التى يتلامس معها القلب ، وتدركها النفس ، ويتذوق حلاوتها الإنسان الجديد . . .

هذا الحب الذى نلمسه فى كل أعمال الله معنا وفى تدبيره الفداء وتقديس نفوسنا له . فنبدأ إن شاء الرب وعشنا بالحديث عن « محبة الله فى خلقه الانسان » أو قل « حب الله والفردوس » .

† † †

الفصل الأول

آدم والفردوس

† آدم والعشق الإلهى

† خلق الكل لأجلى !!

الله حب ... وفى حبه خلق النفس نسمة صادرة منه ، قادرة أن تحب ، لا بحكم طبيعتها الذاتية ، بل لإرتباطها بالله الحب المطلق .

إنها صورة الثالوث الأقدس (١) وعلى مثاله ، تنجذب إلى الله وتتوق إليه وتشبع منه .

علاقة الله بالانسان أو العكس ، لا تقف عند مجرد علاقة عبد بسيد ، أو تمثال بصانعه ، أو خليقة جامدة بإله قوى جبار . . . إنما هى أعمق وأعمق ، هى علاقة حب متبادل ، أو قل عشق بين حبيبين أحدهما صورة أو ظل والآخر هو الأصل .

فبين الإنسان وبقية المخلوقات فارق ، فالله لم يخلق الإنسان كبقية المخلوقات الأرضية التى يقف عملها عند مجرد الطاعة الكاملة ، متعبدة له بخضوع طبيعى مطلق لا تقدر أن تنحرف عنه ، ليس لها أن تقبل أو ترفض . . . وفى هذا تكشف عن جمال الله وقدرته وحكمته . . . إنما هى علاقة

(١) لا يسع المجال للحديث عن الثالوث الأقدس. وكيف أن النفس صورة له ، إنما تمكننى أن تقول أنها موجودة ، ناطقة ، حية . على صورة الأب والنطق الإلهى (الإبن) والروح القدس .

إنجذاب الصورة نحو الأصل ، عبادة حب متبادل ، يسر الأصل بالصورة ويلبناها ، وتتقبل الصورة مسرة الأصل وتفرح به بإرادتها .

خلق الله الإنسان لا لاحتياجه إليه أو إلى عبادته ، فإن الله لا يحتاج حتى إلى الملائكة وكل الطغمات السمائية التي تتوق دوماً أن تخدمه بمسرة ! !

إنما خلق الإنسان على صورته ومثاله ، يلذ به لما فيه من إنعكاس لانطباعات الله قبل أن يفسدها الإنسان .

فالله يحب ، والإنسان يقبل الحب . . .

الله يعطى ، والإنسان يتقبل العطية . . .

الله يهتم ، والإنسان يدرك اهتمام الله . . .

ما أجهل أولئك الذين يتصورون الله ، إلهاً عظيماً جباراً يجلس على عرش عالٍ مرتفع ، بمنأى عن الناس وشئونهم ، لا يهتم بسعادتهم أو شقائهم . . . يتصورون الله كما تصور أرسطو ، أنه حرك العالم وأوجده ولم يعد بعد ما يربطه به . فقد قيل (١) « ان الله عند أرسطو يشبه قائداً وقف كالتمثال إعتزازاً بكرامته ، وكأن هناك عساكر من خشب أخذته تحاكيه على قدر إستطاعتها ، فتنظمت جيشاً حقيقياً » .

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية للاستاذ يوسف كرم .

الله لم يخلق الانسان ليقف متفرجاً عليه ، ولا لكى يخيفه ويرعبه ، طالباً منه تقديم ذبائح وتقدمات ترضيه وإلا نفث فيه غضبه ... كما يحسب الوثنيون . إنما هو حب يعشق محبوبيه ...

والآن ماذا قدم الحب لمحبوبيه ؟ ! !

† قدم لهم فردوسا لاشباع حاجات الجسد ، وقدم نفسه فردوساً للنفس ، كما أعطى للانسان كرامة .

† ووهبهم وصية حب .

† ودبر لهم خلاصاً عند سقوطهم ! !

† † †

† يقول غالبية البشر : ماذا ؟ هل يفكر الله فى الآن ، حتى يعرف ما أصنعه فى منزلى ؟ ! هل يهم الله ما أريد أن أفعله وأنا على سريرى ؟!!

« إفهموا أيها البلداء فى الشعب ، ويا جهلاء متى تعقلون » مز ٩٤ : ٨ . فانك كرجل من شأنك أن تعرف كل ما يدور فى بيتك ، وأن يصل إلى علمك كل أفعال خدمك وأقوالهم . أفما تظن أن لله عمل كهذا ، أنه يلاحظك ؟!!

أغسطينوس

† إلهى ... إننى إذ أتأمل فى ضميرى ، أراك ناظراً نحوى دائماً ، ومتنبهاً

إلى نهاراً وليلا بجهد عظيم ، حتى كأنه لا يوجـــد في السماء ولا على الأرض خليقة سواى .

اغسطينوس

† أنت الذى ترفرف بعنايتك حول كل البشـــر ، من يوم ولادتهم إلى يوم وفاتهم ...

مراحمك يا إلهى وحنوك يشملان خليقتك كلها ، إذ أنك لا ترفض عمل يديك .

اغسطينوس

† عيناك منجذبتان نحو خطوات البشر ...

إذ أنت مهتم بكل خليقتك ، لا تحرم واحداً من جبلة يديك عن فيض حبك !!

أنت بنفسك تهتم بخطواتى وطرقى ليلا ونهاراً ، تسهر لرعايتى ، تلاحظ كل سبلى ، لا تكف عن الاهتمام بى ، حتى ليمكننى أن أقول : أنك تنسى السماء والأرض وما فيهما ، مركزاً إهتمامك على ، فتبدو كمن لا يهتم بخليقة سواى !!

نور عينيك السرمدى ينصب بكماله نحوى ... ومع ذلك فهو ليس بغير موجود بالنسبة لغيرى ، إذ لا يضعف نورك قط باحتضانه الخليقة غير المحصية .

نظرك كامل فى قدرته ، ليس شىء يقدر أن يفقده شيئاً من قوته . يبقى — رغم إتساع مداه — كما هو فى كماله ، لا تخور قوته ولا يضعف صلاحه ...

نظرك كامل ، يتطلع إلى الكل دفعة واحدة ... لا يمس سرمدية طبيعته إنقسام أو تغيير أو نقص ...

أنت تحتضن وجودى برعايتك إياى رعاية كاملة دفعة واحدة ، وتحتضننى على الدوام ، كأنك لا تتطلع إلى آخر سواى !!

تسهر على ، وكأنك قد نسيت الخليقة كلها .

تهبنى عطاياك ، وكأنى وحدى موضوع حبك .

بصلاح حلولك الدائم فى كل مكان ، تسرع إلى دوماً بمعونتك ، متى وجدتنى متأهلا لقبول عونك ...

إلهى ... حيثما أكون أجدك أمامى ، لأنك حال فى كل مكان . وبنعمة حلولك هذا أتقابل معك أينما أكون حتى لا أهلك ، لأنه بدونك ليس لى وجود .

إننى أعترف لك إذاً ، أن كل أعمالى ، أيا كانت طبيعتها ، فإنها مكشوفة قدامك ، تتطلع إليها أكثر منى ، وتعرف فاعلها .

إنه لا يوجد قط شىء أنت لا تعرفه ... أفكارى ومقاصدى وأفراحى

وأعمالى ... ليس شيء من هذا غير مطروح أمام اهتمامك الأبدى .

إلهى ... أنت تعرف أفكارى فى أعماق غموضها .

إلهى ... أنت لا تجهل جانباً ما من جوانب روحى ...

أنت تعرف هدف أعمالى وما يجول بذهنى ، وطبيعة مسراتى ...

عيناك ترقبان هذا كله ، وأذناك تنصتان إليه .

اغسطينوس

† † †

خلق الكل لأجلي

« فى البدء خلق الله السموات والأرض » تك ١ : ١ .

فى البدء ، من قبل أن يوجد الانسان ، سعى الله نحوه وطلبه ...

قبل أن يتحرك الانسان ليطلب الله ، سعى الله من أجل الإنسان ...

الله — كما يصوره لنا الكتاب المقدس — يبادر بالحب ... بل هو الحب ذاته (١ يو ٤ : ٨) . يحب لذات الحب ، يحبنا فيه ، إذ يرانا جبلته التى على صورته ... يقدم كل إمكانية لنا من أجل الحب ذاته .

ماذا أقول عن إهتمام الله بالإنسان ؟ ! !

لننظر إلى المسكونة فنشاهد كل ما فيها وما عليها ... النور والشمس والقمر والكواكب ، بل وكل عوالم الأجرام السمائية غير المحصية ، الأرض وكل مواردها التى لا تنضب ، البحر وعجائبه ... الكل خلقه الله من أجل الإنسان !!

لنشاهد السماء والأرض وكل الخليقة ، فإنها جميعاً قائمة لأجل خدمتنا !!

من يتطلع إلى أعمال الله من أجله ، يهاله أن تحيط به هباته من كل

جانب (١) . حتى ليرى الله كما لو كان قد تغافل عن كل شيء ووجه كل إهتمامه إلى الإنسان وحده ... بل إلى كل إنسان على حده وحده

يوسف عندما طلبت منه إمرأة فوطيفار أن يخون زوجها في شخصها أبى قائلا « هوذا سيدى لايعرف معى ما فى البيت وكل ماله قد دفعه إلى يدى . ليس هو فى هذا البيت أعظم منى . ولم يمسك عنى شيئاً غيرك لأنك إمرأته » تك ٣٩ : ٨ ، ٩ ... هكذا إذ دفع فوطيفار بماله ليوسف ، لكى يديره دون أن يمتلكه عز عليه ألا يحبه ، أما الإنسان فقد أقامه الله متسلطاً على كل ما خلقه من أجله . أعطاه أن يتسلط على طيور السماء وأسماك البحر وحيوانات البرية وكنوز الأرض (تك ١ : ٢٦ ، ٢٨) . الإنسان الذى يخاف اليوم الأسد والتنين والعقارب والثعابين والطيور الجارحة وأهوال البحر وزلازل الأرض ... كانت كلها يوماً ما خاضعة له ... ولازالت خاضعة له — وان كانت الخطية قد أضعفت سيطرته عليها ...

أراد الله منى أن أحبه ، فأمسك بيدى معطياً لى كل شيء حتى لا أترك حبه ...

---

(١) راجع مقال ا . كرسى موريسن رئيس المجمع العلمى فى نيويورك سابقاً فى كتاب « الله محبة » لتدرك أسرار عناية الله بالانسان حتى فى خلقته للحشرات التى تبدو كما لو كانت قد خلقت بلا نفع ! !

فالحجر الصلد بالضـــرب المستمر يتحطم ... فكم بالأكثر يلزم أن يذوب قلب الإنسان قبال عطايا الله وحسناته الدائمة ! !

الحيوانات غير العاقلة بالاحسان المستمر تستأنسها ... فكم بالأولى الإنسان العاقل أمام عطايا الله غير المحدودة ! !

العدو إن أردنا أن نلين قلبه ، ونجمع جمر نار حب لنا على رأسه ، نطعمه إن جاع ونسقيه إن عطش (رو ١٢ : ٢٠) ... فكم بالأكثر عندما يقدم لنا الحبيب كل احتياجات جسدنا مجاناً ؟ ! !

إنه من أجل حبه لنا ، وطلب حبنا له ، يهتم بطيور السماء وأسماك البحر ... إذ يقول بفمه الإلهى « أنظروا إلى طيور السماء . إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن . وأبوكم السماوي يقوتها . ألستم بالحرى أفضل منها ... ان كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويطـــرح غداً فى التنور يلبسه الله هكذا ، أفليس بالحرى جداً يلبسكم أنتم يا قليلى الايمان » مت ٦ : ٢٦ — ٣٠ .

فى كل يوم يؤكد لنا الرب حبه لنا واهتمامه بنا ... بل حتى بشعور رؤوسنا قائلا « أليس عصفوران يباعان بفلس . وواحد منها لا يسقط على الارض بدون أبيكم . وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة » مت ١٠ : ٢٩ ، ٣٠ .

أنه يحب ... وفى حبه لا يكف عن أن يعمل من أجل محبوبيه ، إذ يقول الابن الوحيد نفسه « أبى يعمل حتى الآن وأنا أعمل » يو ٥ : ١٧ — ويترنم المرتل قائلا « أعين الكل تترجاك وأنت تعطيهم طعامهم فى حينه . تفتح يداك فتشبع كل حى رضى » مز ١٤٥ : ١٥ ، ١٦ (راجع مز ١٠٤ : ٢٧ ، ٢٨) .

† † †

† قدوس ،

قدوس أنت أيها الرب ،

وقدوس فى كل شىء ، وبالأكثر مختار هو نور جوهريتك ، وغير موصوفة هى قوة حكمتك . وليس شىء من النطق يستطيع أن يحد لجة محبتك للبشر .

خلقتنى انساناً كمحب للبشر ولم تكن أنت محتاجاً إلى عبوديتى ، بل أنا المحتاج إلى ربوبيتك .

من أجل تعطفاتك الجزيلة كونتنى إذ لم أكن .

أقمت السماء لى سقفا ، وثبت لى الأرض (١) لأمشى عليها ..

(١) الأرض فى سرعة دورانها تصير بالنسبة لى كأنها ثابتة ، والا ما استطاع أحد منا أن يمشى عليها .

من أجلى ألجمت البحر ، من أجلى أظهرت طبيعة الحيوان ، اخضعت كل شيء تحت قدمى . لم تدعنى معوزاً شيئاً من أعمالِ كرامتك .

أنت الذى جبلتنى ، ووضعت يدك على ، وكتبت فى صورة سلطانك ، ووضعت فى موهبة النطق ، وفتحت لى الفردوس لأتنعم .

وأعطيتنى علم معرفتك ، أظهـــرت لى شجرة الحيـــاة ، وعرفتنى شوكة الموت .

اغريغوريوس الثيئولوغوس

† إلهى ... لقد أخضعت كل شيء تحت قدمى الانسان (مز ٨) حتى يمكنه أن يشكرس بكليته لك ، لهذا لم تقم عليه سيداً غيرك ، بل جعلته هو سيداً على خليقتك .

خلقت كل شيء من أجل جسده ، وأوجدت جسده من أجـــل روحه ، وروحه من أجلك أنت ! !

لهذا يلزمنا أن نركز فكرنا فيك ، ونصب حبنـــا كله لك . فيتحقق هدفنا بفرحنا بك أنت مصدر صلاحنا . كما يلزمنا ألا نستخدم الخليقة الأدنى منا إلا فى خدمتك ...

هل ستقدم لنفوسنا أقل مما قدمته لأجسادنا ... ؟ !

فمن أجل العينين أشرقت بالنور من السماء على الأرض ، خالقاً الشمس والقمر كخادمين لايتعبان . الأول ينير لأولادك نهاراً ، والثانى يضىء لهم ليلا .

لأجل تنفسه حوطته بالهواء النقى .

لأجل أذنيه خلقت له الأنغام المختلفة .

لأجل حاسة الشم أوجدت الروائح العطرية .

لأجل حاسة التذوق أوجدت له أشهى الأطعمة .

لأجل حاسة اللمس أوجدت المادة المحيطة به .

ولكى تعينه فى أعماله ... أوجدت له الحيوانات التى تخدمه ، وطيور السماء ، وثمار الأرض ...

تبعث لنا هذه الأرض الأدوية لتشفى أمراض جسدى ، فليس مرض ليس له علاج !!

كم أنت طيب يا إلهى !!

كم أنت رءوف !!

تعرف جسدى معرفة جيدة لأنك أنت جابله ، ونحن نعتمد عليك كما يعتمد الإناء على يدى الفخارى .

اغسطينوس

✝ العالم تصونه العناية الإلهية ، إذ لا يوجد مكان لا تدركه هذه العناية .

والعناية الإلهية هي تنفيذ مواعيد الكلمة الإلهية ، الذى يهب شكلا للمادة التي يتكون منها هذا العالم ، وهو المهندس والفنان لهذا كله .

فالأشياء ما كان يمكن أن تأخذ جمالها لولا فطنة قوة الكلمة الذى هو صورة الله (الآب) وعقله وحكمته وعنايته .

القديس انطونيوس الكبير

✝ لماذا خلق الانسان ؟ لكي يمجد الله .

يرى خلال الخليقة الله الذى أوجدها من أجله .

✝ إن أخطر أمراض النفس وأشر الكوارث ، هو عدم معرفة الله الذى خلق الكل لأجل الإنسان ، ووهبه عقلا ، وأعطاه كلمة (نطقا) بها يسمو إلى فوق وتصير له شركة مع الله ، متأملا وممجداً إياه .

انطونيوس الكبير

✝ شكل الصلاح (الله) الإنسان من تراب الأرض فى مادة عظيمة هكذا أى الجسد ...

نفخ فيه نفساً لا تموت بل تحيا .

أعطـــاه سلطاناً على كل الأشياء حتى يتمتع بها ويتسلط عليها ، بل ويعطيها أسماء .

ألحق بالإنسان أيضاً مباهجاً ...

وكان الصلاح يعين الانسان حتى لا يبقى من نصيبه شيء غير صالح . لقد قال لا يحسن أن يكون الإنسان وحده . لقد عرف تماماً ما يكون لسعادته ، ألا وهو أن يكون له جنس مريم وأيضاً الكنيسة .

العلامة ترتليان

† † †

الفصل الثاني

الله فردوس النفس

+ الحاجة إلى واحد .

أولا : الله مركز النفس .

ثانياً : تمتعنا بالله مصدر الجمال .

ثالثاً : الله نور النفس .

رابعاً : الله ينبوع الصلاح .

الحاجة الى واحد

إن كان الرب قد خلق الفردوس من أجل الجسد ، فإن الجسد الذى يرتبط بالنفس الساكنة فيه لن يسعد إلا بسعادتها ! والنفس التى هى نسمة من القدير لن تجد لذتها إلا فى واحد ... وهو خالقها !

فالنفس تتطلع إلى الأرض وكل خيراتها ، والسماء وما فيها ، ولكن هيهات أن تشبع إلا بخالقها !

إنها إن أحبت شيئاً ، إنما لأنه لمسة حب من يد أب صالح ، لكنها لن تقنع إلا بالآب ذاته !

انها كالعروس التى تتطلع فى هدايا عريسها فتفرح وتسر ، لا لأجل الهدايا فى ذاتها ، لكن بكونها من يد عريس يحبها وتحبه ... انها تأبى أن تقنع بهداياه ـ مهما بلغت كثرتها وعظم ثمنها ـ دونه !

تتطلع الى الله أنه فردوسها الذى تتمتع به ولو لم تنل شيئاً من أمور العالم . وجحيمها وظمؤها هو أن تنفصل عنه ولو كانت فى داخل فردوس !

هذه هى مشاعر آدم فى الفردوس ... إذ بين آن وآخر كان يسمع صوت الله حبيبه ماشياً فى الجنة ، فتسكر نفسه وتذوب فى حب ، فينسى

كل ما هو حوله ، حتى نفسه أيضاً ، وكأنه ليس فى الوجـود إلا الله ! !

لـكن ، ما أن سقط آدم حتى تحولت نفســـه إلى بئر من القـــلق ، تستثقل الفردوس ... بل وتستثقل ذاتهـا ... تريد أن تتخلص وتهرب ولـكن إلى أين ؟ !

فى الفردوس ليس لها راحة ، وخارج الفردوس ليس لها راحة بوجوده (آدم) مع حواء ليس لها راحة وبدونها ليس لها راحة . لو أعطى أولاداً أو حرم منهم ليس له راحة ... إنه يسعى ويسعى لعله يجد راحة وسعادة ... ولـكن الحاجة إلى واحد ، وحده قادر أن يشبع نفسه ! !

الحاجة الى واحد

توارثنا نحن الابنـاء قلق أبينا آدم ، وتزايد عطشنا ، وتكاثر قلقنا ، بسبب حرماننا من أثمن ما قدمه الله لنا ، ألا وهو التمتع به !!!

فلا عجب إن قامت الفلسفات الحـــديثة فى أغلبها لتؤكد أن الانسان حيـوان قلق وكأن القلق صفـة جوهرية تلازم النفس البشرية ، إذ يقول باغى Péguy أن الانسان بئر من القلق .

يشتهى المـال أو الـكرامة أو مديح النـــاس ... وبقدر ما ينال مما يبتغيه يزداد قلقه بزيادة الهوة بين ما يعوزه فيشتهيه وبين ما تحقق له أخذه .

إنه غير قادر أن يتلمس حقيقة مشكلته ... حاجة نفسه الى فردوسها الحقيق ، الله اللانهائى ! !

أدرك نابليون الانتصار على الكثير من دول العالم ، ولو غزى بقية دول العالم لما شبعت نفسه ، طالباً أن يمتلك القمر والكواكب ... وحتى لو بلغ هذا لإزدادت نفسه ظمأ !

وبقدر ما قدمت لنا العلوم الحديثة من معرفة واسعة لم يكن يحلم بها الانسان يوماً ، إكتشف هوة جهله السحيقة إلى معرفة أمور أكثر ...

وبقدر ما قدمت لنا الصناعات الحديثة من انتاج يشبع الكثير من حاجيات الجسد ، إلا أن حالات المرض النفسى من قلق وسأم وخوف ... تزايدت بدرجة مخيفة .

لست بهذا أنكر فضل العلماء ، ولا يطالب الله الانسان بالتواكل أو التراخى فى العمل والبحث والاكتشاف ... إنما أريد أن أقول أن النفس الخالدة لاتقنع الا بالله الخالد ، تتوق الى اللانهائية فى كل شىء ، تريد أن تمتلك الأبدى الكامل المطلق ... لهذا حتى الانسان الملحد إن عاش ولو ألف سنة ، لطلب البقاء أكثر ... وإن قدمت له الأرض لطلب السماء ، وإن نال السماء أيضا ، لن تستريح نفسه مالم يلتق بالله ...

لهذا يقول أغسطينوس « إلهى ... لقد خلقتنا متجهين إليك ، ولذلك لن يجد قلبنا راحة الا اذا استراح فيك » .

هذا ما دفع الإبن - أن يتجسد بيننا ، يعلن ذاته لنفوسنا ، ويقدم نفسه فردوساً لمن حرموا مع أبيهم منه ...

يسوع ـ الكلمة المتجسد ـ جاء ينادى فى كل مناسبة « أنا هو ... »، (١)

كلمات إله محب يقـــدم نفسه لنفوس جبلته ... لو نطق بهـــا آخر غيره ، لـكان إنسانا متكبراً متعجرفاً قـدم ذاته للنفوس البشرية ليغتصب مـكانة الله الخالق المشبع لنفوس خليقته ...

هذا هو جوهر المسيحية : الاعلان عن شخص يسوع ـ الحب الباذل ـ وقبوله فردوساً للنفس . لهـذا نادى قائلا « إن عطش أحـد فليـــأت إلى ويشرب » ، « من يرد فليأت ومن يعطش فليأخذ ماء حياة مجاناً »

وهكـذا إذا تحتـاج النفس إلى معرفة الطريق تسلـكه وسط تيـــارات العالم الجارفة وشهوات الجسد المضللة ، رأت حبيبها يقدم نفسه سلماً تصعد به إلى السماء حيث موطنها النهـائى ، فيناجيهـا « أنا هو الطريق والحق » يو ١٤ : ٦ .

وإذ تحتاج الى قوت يسندها ، به تنمو وتحيـا ، ترى فى عشيقها كل الشبع ومصدر حياة لهـا ، يتوق أن تقبل أن تأكله وتحيا به ، إذ يؤكد لها

---

(١) راجع مت ١٤ : ٢٧ ، ٢٤ : ٥ ، ٢٦. ٢٢ ، ٢٥ .
مر ٦ : ٥٠ ، ١٣ : ٦ ، ١٤ : ٦٢ .
لو ٢١ : ٨ ، ٢٢ : ٧ ، ٢٤ : ٣٩ .
يو ٦ : ٢٠ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٥١ ، ٨ : ١٢ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٩ :
٩ ، ١١ : ٢٥ ، ١٤ : ٦ ، ١٩ ، ١٨ : ٥ .

« أنا هو خبز الحياة . من يقبل الى فلا يجوع . ومن يؤمن بى فلا يعطش أبداً » يو ٦ : ٣٥ .

وإذ تشعر بمباهج العالم وملذاته وهمومه وأثقاله ، وشهوات الجسد وإنفعالاته ، وحرب الشيطان وأخاديعه ، يعلن لها « أنا هو القيامة والحياة . من آمن بى ولو مات فسيحيا » يو ١١ : ٢٥ .

واذ تشعر بالعوز إلى قائد ليسندها ويرعاها ، يكشف لها « أنا هو الراعى الصالح . والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف » يو ٢٠ : ١١ .

وإذ تحس بفراغ فى داخلها ، تود صديقاً باذلا غير مغرض ، رقيقاً ، طويل الأناة ، وختناً يصغى إلى أسرارها ، تناجيه ويناجيها ... يقدم لها نفسه صديقاً للخطاة والعشارين وعريساً لمن يؤمنون به ...

هذا هو الفردوس الذى لا ينضب ، يفيض ويفيض بغير حدود ، يعطى شبعاً قدر ما نقبل ، يترجى الكل أن يقبلوه مستعطفا « أنا واقف على الباب أقرع . إن فتح لى أحد أدخل وأتعشى معه » وإن لم يفتح لى ، ألح مرة ومرات لعل قلبه يلين ... ويفتح لى ، لأنى أحبه !!

جاء متجسداً ، حتى يعيد إلى النفس سعادتها ، ويملأ جوانبها ، وينزع القلق منها ...

يانفسى المسكينة ، ماذا تطلبين ؟ !

إن أردت الحكمة ، تجدين يسوع مصدر الحكمة وينبوعها ، بل هو الحكمة ذاته !

وإن طلبت القوة والقدرة ، فهو القدير !

إن بحثت عن اللذة والسرور ، فهو ينبوع الفرح الحقيقى !

إن إشتقت إلى السكر ، فمحبته تسكر النفس !

وإن جعت الى الخبز ، فهو خبز الحياة !

وإن شغفت بالغنى ، فهو خالق الكل !

وإن أردت الراحة ، تجدين فيه وحده راحتك ! . . إقبليه فليس لك غيره من يشبعك .

† † †

أولاً : الله مركز النفس

تحدث بولس الرسول إلى الأثنيين عن الله قائلا :

« الإله الذى خلق العالم وكل ما فيه ، هذا إذ هو رب السماء والأرض لا يسكن فى هياكل مصنوعة بالأيادى . ولا يخدم بأيادى الناس كأنه محتاج إلى شىء . إذ هو يعطى الجميع حياة ونفساً وكل شىء ...

انه عن كل واحد منا ليس بعيداً . « لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد » أع ١٧ : ٢٢ : ٢٨ .

فالله ليس ببعيد عن نفوسنا ، بل هو مركزها !

إن كانت السماء والأرض لا تسعانه ، لكنه يقبل النفس البشرية التى هى على صورته ومثاله عرشاً له ... وهى أيضا تمتلىء به وتستريح !

إنه يطلب القلب (أم ٢٣ : ٢٦) ، وإذ تقدمه النفس للرب تراه سريراً صغيراً (نش ٣ : ١) فيوسعه الرب (أش ٥٧ : ٨) ، لكنه لا يحتمل معه عريساً آخراً ...

فالقلب راحته فى الرب وحده ، وشبعه يكمن فيه ، لأنه سماوى ولا يمتلىء إلا بذاك السماوى ...

وكما أن الخاتم الذى يصنع خصيصاً ليوضع فيه حجر كريم مثلث الشكل ، لا يقبل غيره ، هكذا النفس لا تسعد إلا بالثالوث الأقدس .

لهذا نقول ، انه من غير الخطية ، ما كانت هناك حاجة الى وصية المحبة ، إذ النفس بطبيعتها تنجذب نحو الله ، كما ينجذب حجر ثقيل نحو الأرض طبيعياً بعمل الجاذبية الأرضية ...

أما وقد دخلت الخطية الى القلب ، فقد صارت هناك حاجة الى تنقية القلب بعمل دم يسوع وتقديس الروح ... مع وصية المحبة .

لقد صارت هناك حاجة الى أن يعرف الانسان أن الله مركز حياته وسعادته ، فيه كل شبع النفس وراحتها . هذا الأمر الذى ما كان لآدم أن يسمع عنه ، لأنه يعرفه طبيعياً .

أما الآن — بعد السقوط — فلا يكف الله عن أن يوبخ جهلنا معلناً حقيقته قائلا « لأن شعبى عمل شرين تركونى أنا ينبوع المياة الحية لينقروا لأنفسهم آباراً آباراً مشققة لا تضبط ماء » أر ٢ .

وجاء رب المجد يسوع ينادينا « تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلى الاحمال وأنا أريحكم » مت ١١ : ٢٨ .

† † †

الله كل حياتي !!

إلهي ... ليتني أعــــرفك ، يا من أنت تعرفني . ليتني أعــــرفك يا قوة نفسي !!

إكشف لي عن ذاتك ، يا معزى نفسي ! ...

ليتني أعاينك يا ضياء عيناى ! ...

إسرع يا بهجة نفسي ، لاتأمل فيك يا سرور قلبي ! ...

إلهي حبك ، فأنت هو حياتي ! ...

إشرق علي ، ففيك يكمن فرحي الحقيقي . فيك عذوبة راحتي . فيك حياتي . فيك كمال مجدي ! ...

ليتني أجدك ، يا شهوة قلبي ! ...

ليتني أقتنيك ، يا حبيبي ! ...

لا تترك أحضاني ، أيها العريس السماوي ، فعند حلولك ينتاب كياني كله — داخلي وخارجي — نشوة فائقة علوية ! ...

هبني ذاتك ، أيها الملكوت الأبدي ، حتى أتمتع بك أيها الحياة المبارك . يا تهليل نفسي غير المدرك !

« أحبك يارب قوتي . الرب صخرتي وحصني ومنقذي » مز ١٨ : ١ .

نعم . أعنى كى أحبك . فأنت هو إلهى . أنت حامى . أنت حصنى المنيع . أنت رجائى العذب فى وسط ضيقاتى ...

لألتصق بك ، فأنت هو الخير وحده ، وبدونك ليس للخير وجود !

لتكن أنت كل سعادتى ، يا كلى الصلاح !...

إفتح أعماق أذنى ، فأسمعك أيها الكلمة الإلهى ، يا من يخترق نفسى كسيف ذى حدين ! ...

آه ! يا إلهى !! إرعد من سماك بصوتك القوى (مز ١١ : ١٣) !! ليزأر البحر وكل أمواجه ، لتتزلزل الأرض وليرتعب كل ما عليها . انزل عليهما بالصواعق فيتبدد كل شك فيهما . وفى النهاية اكشف لأذنى أعماق المياة وأسس المسكونة (مز ١٨ : ١٥) !

أيها النور غير المنظور ، هب لى عينان تستطيعان معاينتك !

يا رائحة الحياة الإلهى ، هب لى حاسة جديدة للشم تجذبنى نحو رائحة أطيابك الزكية ! ...

ربى ... نقى فى حاسة التذوق ، حتى نقدر أن تتذوقك ، وتتعرف عليك ، وتكتشف غنى لذتك المذخرة لكل من يرتشف رحيق محبتك !

هب لى قلبـــاً لاينبض إلا بحبك ، ونفساً تعشقك ، وروحاً أميناً

لذكراك ، وفكراً يدرك غور أســـرارك ، وعقلا يستريح فيك ويتحد بحكمتك المحيية دائما ، ويعرف كيف يحبك بتقوى أيها الحب المذخر فيك كل حكمة !

أيها الحياة ، لمجدك يحيـا كل مخلوق . لقد وهبتنى الحيـاة ، وفيك حياتى . بك أحيا ، وبدونك أموت ! ...

بك أقوم ، وبدونك أهلك ! ...

بك أمتلىء فرحاً ، وبدونك أهلك حزناً ! ...

أنت هو الحيـــاة ، مصدر الحياة ، ليس شىء يوازى وداعتك وجمالك ! ...

أتوسل إليك : إخبرنى أين أنت ؟ ! أين ألقاك ، فاختفى فيك بالكلية ولا أوجد الا فيك !

آه ! إسرع واجعل من نفسى مسكناً لك ، ومن قلبى مستقراً !! ...

تعال ... فإنى مريض حبـــاً . بعدى عنك موت لى ، وذكرك يحيى نفسى ! ...

رائحتك تعيد لى قوتى ، وذكراك يخفف آلامى ، ظهورك شبع لى (مز ١٧ : ١٠) !

يا حياة نفسي ... قلبي يجرى وراءك ، ويذوب عند تذكر خيراتك .
متى يحين وقت رحيلي إلى ملكوتك !؟ متى أحظى بمعاينة جمالك ، أيها الحياة سعادة قلبي !!

لماذا تحجب وجهك عنى ، يا سعادة نفسي الوحيد ؟!

أين تختفى يا رب الجمال ، يا نهاية كل طموحي .

رائحتك التي أتنسمها تسكرنى بالحياة والدهش ، هذا رغم اننى لم أرك بعد ، لأنه مكتوب : لا يرانى انسان ويعيش (خر ٣٣) .

حسناً ، لو عملت بهذا التحــــذير فلن أراك . لـكن لأموت يا ربى وأراك . لأراك يا ربى قبل أن أموت ، فعندما أريد أن أحيا ، أريد أن أموت « لى اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح » فى ١ : ٢٣ !

إننى أشتهى المــــوت لـكى أراك . إننى لا أريد العيش بعد لـكى أحيـا بك !

إلهى يسوع ... إستلم حياتى ، فأنت حياتى !

إجذب قلبي ، فأنت هو فرحى !

أيها الغذاء الدسم ، كن أنت شبعى ! ...

أيها القائد الإلهى ، قونى !

آيها النور الحقيقى الذى يضىء عيناى ، أنر لى ! ...

أيها اللحن العذب ، إطرب كل نفسى ! ...

أيها الرائحة السمائى ، انعشنى بك ! ...

يا كلمة الله ثبتنى فيك ! .

فرح نفس عبدك . . أدخل الى نفسى أيها الفرح الحقيقى ، حتى تبتهج بك ! ادخل إليها أيها العذوبة اللانهائية ، حتى تتمتع بالعذوبة الحقيقية ، أفض عليها بشعاعك أيها النور الأبدى ، حتى تعرفك وتدركك وتحبك ! .

فلماذا هى لا تحبك بل هى فاترة من جهتك إلا لعدم معرفتها لك ؟ ! وعدم معرفتها ناجم عن عجزها عن إدراكك . وعجزها هذا بسبب عدم تقبلها نورك ، إذ « النور أضاء فى الظلمة ، والظلمة لم تدركه » يو ١ .

أيها النور الذى يضىء للنفس ، أيها الحق البهى ، أيها البهاء الحقيقى الاستضاءة ، يا من تضىء لكل إنسان آت الى العالم . أتيت الى العالم ، والعالم لم يحبك ! ...

إلهى ... بدد الظلمة الكثيفة التى تخيم فى نفسى ، حتى تراك عند إدراكها إياك ، وتعرفك عند تقبلها لك ، وتحبك عند معرفتها لك .

إن كل من يعرفك يحبك ! ينسى نفسه ! يحبك أكثر من ذاته ! يترك نفسه وينجذب إليك ، لينهل لذته فى الإتحاد بك !

سيدى ... إن كنت لم أحبك كما ينبغى ، فذلك لأننى لم أعرفك بعد جيداً . فقلة معرفتى جعلت حبى لك فاتراً ، وفرحى الذى أتمتع به فيك ضعيفاً !

ويحى !! فانه بعبوديتى للمغريات الخارجية ، أنشغل عنك أيها السعادة الكامنة فى داخلى ، وأحرم منك ، وأذهب لكى أرتبط برباطات دنسة مع أباطيل هذا العالم !!

هوذا فى بؤسى ، القلب الذى لك وحدك أن تمتلكه بكل عواطفه وأحاسيسه وتضحياته ، قد وهبته أنا الأمور الباطلة ، فصرت باطلا بحبى للباطل ! لهذا لم تعد بعد أنت فرحى ، بل تركتك واندفعت أجرى وراء محبة العالم الخارجى ! مع أنك لا ترتاح إلا فى أعماق نفسى !

انا أريد التلذذ بأعمال الجسد ، وأنت تود الابتهاج بروحى !

انا بأعمال الجسد أملأ قلبى وأشغل بها ذهنى واجعلها محور حديثى ؛ أما انت يا إلهى فتحيا فى النفس غير المحسوسة ، الخالدة !!

أنت تملك فى السماء ، وأنا أزحف على الأرض !

أنت تعشق الأعالى ، وأنا أطلب السفليات .

أنت تشغلك السماويات ، وأنا غارق فى الأرضيات .

ترى ، متى تتقابل مثل هذه الميول المتعارضة ؟ !

اغسطينوس

† إلهى ... لقد جعلت نفسى قادرة على أن تسع جلالك غير المحدود ، لئلا يكون لها شيئاً يقدر أن يملأها سواك !

† إلهى ... انك صنعتنا لأجلك ... لذلك يبقى قلبنا مضطرباً قلقاً عديم الراحة على الدوام حتى يستريح بك !

اغسطينوس

† إلهى ... إن النفس البشرية هى جبلة يديك ... أوجـــدتها نفساً مفكرة ، عاقلة ، روحية ، خالدة ، دائمة الحيوية .

وإذ لم يعد سرورها كامناً فى جمال وجهك ، كرستها بمعموديتك لكى تسع جلالك ... ولا يستطيع أحد أن يملأها سواك !

عندما تقتنيك تشبع كل إلهاماتها ، ولا شىء من الخارج يقدر أن يشبع رغباتها ! ...

ألست أنت هو الخير الفائق ، وكل خير إنما هو مستمد منك ؟ !

القلب الذى لا يبتغيك ، ماذا يطلب ؟ ! أيطلب الغنى الذى لا يملأ

العالم أم يبتغى أشياء مخلوقة ... وما هذه الرغبـــة فى الأشياء المخلوقة إلا مجاعة دائمة ؟ ! ! من يقتنيها ، تبقى نفسه بلا شبع ، لأنهـا لا تقدر أن تشبع إلا بك يا إلهى ، إذ أنت خلقتها على صورتك ...

أيها الرب إلهى ... أيها الفائق القدرة ... لقد عرفت الآن موضع سرورك . إنها النفس المخلوقة على صورتك كشبهك ، تلك التى لا تطلب غيرك ، ولا تشتاق إلا اليك ! ! ...

اغسطينوس

عطش النفس اليه

† « عطشت إليك نفسى » مز ٦٣ : ٢ .

تأمل كيف عطش داود إلى الله ؟ ! ...

كل البشر مقتولون عطشاً ، لـكن نادراً من يقول « عطشت إليك نفسى » ، بل يعطشون إلى العالم ...

ينبغى علينا أن نتوق الى الحـكمة ،

يجب علينا أن نشتاق إلى البر ...

اغسطينوس

† « عطشت إليك نفسى . يشتاق إليك جسدى فى أرض ناشفة ويابسة بلا ماء » مز ٦٣ : ٢ ...

ان النفس والجسد يعطشان الى الله ... فالنفس يعطها الله خبزها الذى هو كلمة الحق ، والجسد يعطه احتياجاته . لأن الله خالق كليهما !

اغسطينوس

+ إننى عطشان إلى المياة الحياة ، لأنى لم أجر بعد الى ينبوع الحياة !

لقد دعانى مع اخوتى قائلا : من كان عطشاناً فليأت ويشرب !

وهوذا النبي ينخسنى بشدة وقد بح حلقه من صراخه الى قائلا : يا كل العطاش إمضوا الى مياة الحياة ، فإن الذين يشربون منه بغير شبع تجرى من قلوبهم أنهار ماء حى .

الشيخ الروحانى

+ أما تريدون الشبع ؟ وكيف يكون ذلك ؟!

يشتاق الجسد الى الشبع ، لكن يعود اليه الجوع مرة أخرى بعد الهضم ، لذلك يقول السيد المسيح « كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضا » لو ٤ : ١٣ ...

إذاً ليتنا نجوع ونعطش الى البر ، لكى ما نشبع منه . .

ليت انساننا الداخلى يجوع ويعطش حتى يكون له الطعام والشراب المناسبين له .

لقد قال (الرب) « أنا هو الخبز الذى نزل من السماء » يو ٦ : ٤١ .
هذا هو خبز الجياع .

ليتنا نشتاق أيضا الى الشرب كالظمأى « لأن عندك ينبوع الحيـــاة »
مز ٣٦ : ٩ .

الشبع الروحانى

† آه ! إننى لن أشبع إلا عندما يتجلى مجدك قدامى !

تعم يا إلهى . فأنت وحدك القادر أن تعيد لى حياتى السعيدة .

لك أعترف ببؤسى ، وذلك عند رحيل اليوم الذى كنت فيه غارقاً
بين أباطيل العالم المتعددة ، محروماً منك أنت موضوع حبى الوحيد .
ذلك اليوم الذى فيه كانت أشواق الجسدية مشتتة فى المباهج الخادعة .

وما أكثر هذه المباهج تلك التى تحمل فى بهجتها أتعاباً لاحصر لها !؟

هذه المباهج وعدتنى بأمور كثيرة ، ومع ذلك فهى لم تجلب على
سوى الفقر . إنتقلت من واحدة الى أخرى لعل احداها تقدر أن تشبع
نفسى ، لكنها عجزت اذ لم تكن نفسى تحيا بعد فيك ! !

حقا ، إن فيك الحسن ، يا من وحدك سـرمدى ، وسام ،
وكامل على الدوام ! ...

من يقتنى آثارك لن يضل قط !

من يصل اليك لا يلحقه يأس !

من يمتلكك تشبع كل رغباته !

لكن يا لبشاعة بؤسى !! ويحى يا إلهى ، فإن قلبى يميل الى الهروب منك . الهروب منك أنت أيها الغنى الحقيقى والفرح الحقيقى ، لكى يتبع العالم الذى ليس فيه إلا الحزن والألم .

اغسطينوس

† « كأنه قــريب Neighbour . كأنه أخى . كنت أتمشى . . . » مز ٣٥ : ١٤ ...

عندما نفرح فى الصلاة ، عندما يهدأ فكرنا لا بمقتنيات العالم بل بنور الحق ... عندئذ تفرح نفوسنا بالله ، ولا تكون بعيدة عنه ، لأنه كما يقول « به نحيــا ونتحرك ونوجــد » أع ١٧ : ٢٨ ، ولكنه كأخ وكقريب ، كصديق لى !

اغسطينوس

† الآن أيها المتعب والثقيل الأحمال ضع رأسك على ركبتى ربك !

استرح واتكىء على صدره !

إستنشق رائحة الحياة لتخالط الحياة بجبلتك !

إتكىء عليه اذ هو مائدتك ومنه تتغذى !

طهر ميراثك أى فراشك !

وبغير شك يظهر لك النور الموحد بالتثليث !

اجعل هذا فى قلبك فتشعر أن الله حى فيك !

أنت صورة الله أيها الانسان !

الشيخ الروحانى

† † †

لذة النفس وسعادتها بالله

† كنت أود أن أكتب لكننى لم أقدر ! ذهبت منى الممجدة التى كانت ! هربت منى تلك الموهبة التى كانت ! ولما تحكمت بطرق كثيرة ، وحاولت أن أصورها لم أستطع !

أردت أن أزرعها بالخطوط ، وأصورها على الورق ، لأجل غذاء أبناء شعبى ، فلم أتمكن ! ...

فى العالم الخارجى لايوجد لها شبيه ، وفى العـــالم الداخلى من يعـــلم بها !!

فى عالمنا لا يوجـــد له أشباه ، وفى عالم الروحانيين من يقدر أن يأتى بمثـال ؟ ! !

لا أعرف كيف أهدىء لهيب قلبى الذى يغلى ويحترق ...

بالكلام لا ينطق بها ، وبالإشارة لا تصور ، وبحركات الضمير لا تسمع !

قهرت منهـا قهراً عظيماً ! غلبت منهـا كمن لا يعرفها ! سكت عنهـا مثل من لا يحس بها ! غفلت عنها مثل ما لا توصف ! سكت عنها مثل من هو ليس بكفء لها !

كم أنا حزين جداً إذ لم أعرف كيف أصورها أو أشبهها !

وإن كانت لا تشبه ، اطلبوها ياخـلانى . اطلبوها . اطلبوها لـكى تمتزج بكم .

طوبى نعيمها أرفع من كل تطويب ، ليس للذتها مثيل !

هذا هو تفسيرها ، إذ قيل أنت ياأبى فى وأنا فيك ، وأيضا ليكونوا هم فينا واحداً ...

طوبى لمن ذاق هذه الطوبى !

طوبى لمن صارت نفسه مع لحمه وعظامه فى هـــذه اللذة التى لا تفسر ، مثـــل رطوبة الجسد متحدة به ... تمتزج بنفس وجسد خليلهـا ،

ليعطى معطيها تفسير سرها فى كل نفس تطلبها آمين .

الشيخ الروحاني

† طوبى للحامل فى قلبه ذكرك فى كل وقت ، لأن نفسه تسكر دائمـــا بحلاوتك ! ...

طوبى لذاك الذى يطلبك فى داخله كل ساعة ، فإن منه تجرى له الحياة ليتنعم ! .

طوبى للذى يشخص فيك داخله دائماً ، فإن قلبه يضىء فينظر الخفـــايا ! ...

طوبى لذاك الذى يطلبك فى شخصه ، فإن قلبه (ملتهب) بنورك ويحترق لحمه مع عظامه بحرارة طاهرة ! ...

طوبى لذلك الذى أفكاره فيك ياسيدى ، فإن فيك ينبوع روح أنهار ماء الحياة للذته وللذين هم عطاش إلى نظرك ! ...

طوبى للذين إحترقت خدودهم بدموع محبتك ! فان هذه الدموع تلين الأراضى الناطقة التى إحترقت بالنار المنافقة ، فتعطى ثمار فرح ، والذين يأكلونها لا يموتون ! ...

طوبى للذى خلط نومه بحبك ، لأنه برعدة تهرب من عنـــده الشياطين النجسة التى تدنس الكسالى ! ...

طوبى للذى بسط فراشه بعجب أسرارك بلا فتور ، فمنه تفوح رائحة الحياة التى تفرح قلب الأشطاء المنفعلين بروحك القدوس ! ...

طوبى للذى نسى حديث العـــالم بحديثه معك ، لأن منك تكتمل كل حاجاته .

أنت هو أكله وشربه !

أنت هو بيتـه ومسكن راحته ، إليك يدخل فى كل وقت ليستتر !

أنت هو شمسه ونهاره ، بنورك يرى الخفيات !

أنت هو الآب والده !

أنت أعطيت روح ابنك فى قلبه ، والروح أعطاه دالة أن يطلب منك كل مالك ، مثلما يطلب الإبن من أبيه ! معك حديثه فى كل حين ، لأنه لايعلم له أبا غيرك !

الشيخ الروحاني

* إن كـنت تحزن فى طلبه ، فستبتهج بوجوده !

إن كـنت تتـألم لـكى تنظره بالدموع والضيق ، فانه يظهر لك حسنه (جماله) داخلك فتنسى أحزانك !

لا تطلبه خارجاً عنك ، ذاك الذى مسكـنه ومقره فى داخلك !

من رأى حكيماً يطلب نعيمه خارجاً عنه ؟ !

كيف تليق إليك الحيـــاة خارجاً عنك ؟ !

لمن أنت تخدم ؟ لمن أنت تصلى ؟ قدام من أنت تصرخ ؟ لمن تدعو قائلا يا أبانا إسرع لمعونتى ؟ ! قدام من أنت تسكب دموعك ؟ أليس قدام ذاك الذى به تحيا وتتحرك ؟ !

ولكن لماذا لا تشعر بنعيمك فى داخل نفسك ؟ ! أليس لأنك لم تخلط أعمالك به ؟ !

اذا جلست ، أنظر شعاعه متحداً بك ! ...

وإذا قمت فبغمام مجده تطهر ! ...

وإذا مشيت ارفع الأرض عن نظرك ، واجعل مسلكك فى نور الرب كوضع نقى !

وإذا نمت فبلجج نوره تغطى ! ...

وفى شربك إمزج شرابك بمنظر محي الكل ! ..

طر مع الطير فى جو طهارته ، ومع السمك إسبح فى عمق عظمته ، من الحديد فى الكور تعلم سر إتحاده ، ومع نسيم فمك تستنشق نفسك خليلها ، مع الروحانيين قـــدس فى السماء داخلك ، وهناك أنظر مسكنه !

الشيخ الروحاني

† آه ما أعجب خفاياك يا إلهنا . وما أعظم من يؤمن بها !!

نسيت ذاتى بهذيذ أولئك القديسين ، الذين لست أنا واحداً منهم !

أجاهد أن أمسك الله القدوس ، فلا يمسك !

أصوره فلا يتصور !

إذ أنا مملوء فحينئذ أنا فارغ ، وإذ انا ماسكه ليس هو

وإذ أنا ساكن فيه ، فى يسكن !

وإذ هو مخفى عنى ، أنا مخفى فيه !

وإذ أردت أن أطلبه ، أبصره داخلى !

ومن أى موضع ، ... وإلى أى موضع أذهب به ، لا يتركنى !

وإذ أنصت اليه يتكلم معى !

وإذا التمسته لا يتحرك ! ...

السبح لك !!! انك مخفى عن الكل ، ولمحبيك تشرق بلا إنقطاع !

السبح لك ، وعلينا رحمتك إلى الأبد آمين .

الشيخ الروحانى

† إلهى إنى أحبك وشوقى هو أن تزداد محبتى لك على الدوام !

بالحقيقة أنت أحلى من الشهد ، وأفضل من اللبن ، وأكثر ضياء من كل نور . الذهب والفضة والأحجار الكريمة لا تقارن بك فى داخل قلبى !

كل مسرات العالم لا تظهر لى إلا كرائحة كريهة وبلا طعم ، اذ قد تذوقت عذوبتك مرة ، ورأيت جمال بيتك !

أيها النار الإلهى ، يامن لهيبك لاينقطع بل دائم الحرارة !

أيها الحب الدائم الحرارة ، يامن لاتفتر قط !

أيها الحب الإلهى احتضنى !

امتلكنى بكليتى فالتصق بك تماماً ! ...

ليتنى أحبك يالهى لانك أحببتنى أولا !

اغسطينوس

† † †

ثانياً : تمتعنا بالله مصدر الجمال

الإنسان بطبعه يلذ بجمال الطبيعة . . . فلا يكف الكل ، حتى أولئك الذين أغرقتهم بحوثهم وتجاربهم فى المعامل ، عن أن ينسحبوا - ولو قهراً - إلى الطبيعة ليتمتعوا بفترات سكون خلوية تنعم فيها نفوسهم بجمال الطبيعة !

فإن كان جمال الطبيعة المخـــلوقة يسبي العقل ويجتذب الإرادة ويفقد الإنسان أتعاب جسده ... فماذا تكون جاذبية الحسن ذاته ، الخالق ، الذى ليس لجماله قياس ! !

حقاً إن الذين يلتقون بالله ، ويدركون حقيقة جماله ، تسبى قلوبهم بواسطة ينبوع كل جمال ، قائلين عمن إنشغلوا بجمال العالم عن مصدر الجمال ذاته ، ما قاله سفر الحكمة « لأنهم خلبوا بجمالها فليتعرفوا كم ربها أحسن منها . إذ الذى خلقها هو مبدأ كل جمال » حك ١٣ : ٣ .

إلهى . . . كيف أتجاسر لأقارن جمالك أيهـــا الحب الحقيقى بجمال خليقتك !

جمالها ، يدعى جمالا ، لأنه من عمل يديك !

جمالهـا عرضى ، يوجد اليوم كزهر العشب ، الذى سرعان ما يذبل ويجف ، أما أنت فجمالك ذاتى سرمدى يبقى الى الأبد !

جمالها حسن ، لأنك أنعمت عليها بتأملك فيها ونطقك عليها أن كل ما قد صنعته هو « حسن » ! ...

قد نقارن الإنسان بظله ، لكن من يجرؤ فيقارنك بخليقتك ؟ !

جمال خليقتك يسبي عقولنا ويأسر نفوسنا ، كم بالاولى يلزم أن تهيم قلوبنا فى حبك ، مترنمة :

« أنت أبرع جمالا من بنى البشر » مز ٤٥ : ١.

« ها أنت جميل يا حبيبى وحلو » نش ١ : ١٦ .

« حبيبى أبيض وأحمر ...

حلقه حلاوة وكله مشتهيات . . .

هذا حبيبى وهذا خليلى يا بنات أورشليم » نش ٥ : ١٠ ، ١٦.

« ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب » . . .

لننشغل بالجمال ذاته

إن كانت الطبيعة هى كتاب يسجل أعمال الله ويكشف جماله . . .

فلنطو هذا الكتاب بعد قراءته قليلا ، لئلا يشغلنا الكتاب عن هدفه .

لنتلمس خلال الطبيعة لمسات جمال الله وحلاوته ، ولتدخل أنفسنا إلى شركة عميقة فى نقاوة قلب حتى تعاين بنفسها جماله ! «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله » مت ٥ : ٨ .

ليتنق القلب من كل شيء فلا يتأمل إلا الله وحده ، الحب الحقيقى ، الجمال الأبدى ، مستمعاً إلى كلماته « يا إبنى إعطنى قلبك » أم ٢٢ : ٢٦ . « حب الرب إلهك من كل قلبك » . . .

إننا محتاجون أن نرى « يسوع وحـــده » مت ١٧ : ٨ . ننسى الجبل وما عليه مبهورين بجمال الرب وحده ، قائلين مع بطرس «جيد يا رب أن نكون ههنا » هكذا نطلب فى كل شيء أن نتمتع بيسوع ، سابى القلوب .

† † †

† ربى وإلهى . . . لم تقدر يمينى أن ترسم أسرارك بالصور ، ولكن مثل حكيم أتقدم لأكتب ! . . .

أتقدم الآن إلى عندك وأتنعم ! نصعد إلى جبلك المقدس لننظر حسنك (جمالك) الممجد !

نورك مسبوك ، كثير الإشراق ، عجيب الإحسان ، يبهر ناظريه !

يلقبونك « بحراً » و « ينبوع كل العالم » .

عظمتك تحبس كل عمق عميق !

يشبهونك بالنار ، لأنها تعطى دون أن تنقص ، تطهر ولا تتسخ !

الشيخ الروحانى

† قال لى إنسان : انه بينما يكون فى بدء الصلاة أو عند نهايتها ، ينسى ذاته وكل ما له ويتعجب ويتلذذ بجمال خالقه .

من يفهم فليفهم ، وكل من لا يفهم فليعطه الرب أن يدرك .

الشيخ الروحانى

† أغنية غنيت ، ولذ لى صوتها . . .

حبيبى سمعها واستيقظ من نومه ،

وأنصت لها وطابت له أكثر من كل شىء ،

وقفز من نومه وباليقظة إلى الأبد يقف عندى ،

قال ببشاشة : غنِ أكثر ، متعنى بألحانك ، إفتح أبوابك فندخل إلى مخادعك !

† ما أشهاك وأحبك أيها الطفل (يسوع) !

شهوتك تسبى النفوس !

خرجت نفسى وراءك ، إذ فيك تشخص داخلها ، ولها يشرق جمالك !

أنت حسن !

أنت محبوب مثل أبيك !

أنت حلو لذيذ ، مذاقك لا يعرفه إلا من ذاقك فقط !

إستنشقت رائحتك الطيبة ، وقلبى تلذذ فى ، وليس من يقدر أن يفسر !

† إغلقى بابك يا أورشليم ليقف الختن (العريس) ربك فى داخلك ، والبسى عزك يا صهيون (يا نفسى) لتظهر رائحة أطيابك !

الشيخ الروحانى

† طوبى لمن فى شربه يراك مخلوطاً ، يشرب ويبتهج قلبه بمحبتك !

طوبى لمن دخل إليك ، ونظر منظرك العجيب ، وتعجب بجمالك البهى الذى ينبع داخله !

إحتد قلبى على القلم ، كدت أكسره ، لأنه لا يقدر أن يصور الجمال العجيب الذى أنظره ، أنهار مياة الحياة التى تجرى من ينبوع الطوبى ! . . .

كل عقل كثير الكلام ، إن دخل إلى هذا البلد ، يلتزم السكوت عن الكلام والحركات لإندهاشه بالأسرار .

ههنا يظهر الله جماله لحبيه !

ههنا تبصر النفس ذاتها والمسيح المشرق فيها ، ويبهجها منظره !

ههنا الثالوث الأقدس بالسر يرى !

† إحترق القـــلم من حدة نارك يا يسوع ! ووقف يمينى عن الكتابة ! واستضاءت عيناى بشعاع جمالك ! وذهبت من قدامى الارض وكل ما عليها !

دهش ذهنى بالعجب الذى فيك !

إشتعل اللهب بعظامى !

وانشقت الينابيع لتسق جميع لحمى لئلا يحترق !!!

† السبح لك ، فكما أنك عجيب ، عجيبة هى أيضاً أسرارك !

طوبى لمحبيك الذين بجمالك يضيئون كل ساعة !

† قبل أن أخرج من هذا الجسد ، إعطنى يا رب جمال منظرك للأكل ، ورؤيا أسرارك المخفية فيك بحضن جوهريتك للشرب المفرح !

الشيخ الروحانى

† طوبى لمن سكروا بمحبتك يا إلهى ، لأن بسكرهم بك إستمتعوا بجمالك !

ذق يا أخى ، وأنظر حلاوة أبينا الصالح ومقدار لذتها !

† أما أولئك الذين لم يجربوا لذة السكر بالله والتمتع به ، فهم مساكين تعساء !

لقد أعطى الله محبيه طيباً يسكرهم به ويلذذهم ! هو بذاته يفرح وبهم أيضاً يبتهج ! هو هو عرسهم ، وحجلة فرحهم ! ينظرونه فى داخلهم فيبتهجون ! يشرق فيهم من داخلهم ، ويدهشهم بجماله !

الشيخ الروحانى

† المحبة نار تشتعل بالقلب ، صاحبها قائم فى خدمته بفرح !

إنى مرات كثيرة سمعت إنساناً من الأخوة ، حين كان يسكر بمحبة المسيح ، لم يكن يقدر أن يمسك نفسه من النار الإلهية المتقدة فى قلبه ، ومن ابتهاج قلبه النابع عن إشراق سبح الله . . . كان يصرخ ويقول : آه . ألهبتنى محبتك يا إلهى ! إضمحلت حياتى بمحبتك يا ربنا ولم أقدر أن أصبر !

وكان أيضاً يصرخ ويقول مرات كثيرة : طوبى للذين هم سكارى بمحبتك يا ربنا ! آه لحسنك الذى لا ينطق به ، أيهـــا الآب أبى !

الشيخ الروحانى

✝ يا رجل الله ، حتى متى تعزى نفسك بالسواد فقط . كن كلك لهيباً ، واحرق جميع ما هو حولك ، لترى جمال (الله) المخفى داخلك !!

أصرخ بصوت هادىء وساكن قائلا : أيها المخفى فى والمستتر ، إظهر فى سرك المخفى . إكشف لى حسنك الذى هو داخلى . يا من بناتى هيكلا لسكناه ، ظللنى بغمامة مجدك داخل هيكلك .

الشيخ الروحانى

✝ ✝ ✝

ثالثاً : الله نور النفس

« قال الله ليكن نور فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن وفصل الله بين النور والظلمة » تك ١ : ٣ .

هذه هى أول أعمال الله لأجل الانسان .

الله نور الأنوار ، خلق للإنسان النور الذى به يقدر أن يرى ويدرك ويتمتع بما يقدمه له الحب الإلهى .

هذا النور المخلوق تتمتع به العين المادية لترى الماديات ، ولكن قلب الإنسان سماوى يتوق أن يرى السماويات . انه فى حاجة إلى النور الذى به يعاين الله . وما هو هذا النور إلا الله ذاته « بنورك يارب نعاين النور » .

بك أنت وحدك يانور الأنوار نقدر أن نعاينك أيها النور الحقيقى (يو ١ : ٩) !

الله نور الأنوار ... يعكس نوره على كل من يلتقى به ، مقدماً ذاته للجميع بغير محاباة ... لكن لايقدر أن يستضىء به الا الذى يقبله فى داخله ويؤمن بابن الله « النور الحقيقى الذى ينير كل انسان آت فى العالم » يو ١ : ٩ .

فالملائكة منيرون ، يشعون نوراً أينما ظهروا (أع ١٢ : ٧) ، وذلك لمجرد وجودهم الدائم فى حضرة الله نور الأنوار .

والبشر قادرون ـ بنعمة الله ـ على التمتع بنور الله ، لوقوفهم الدائم فى حضرته .

ففى العهد القديم ، مع أنه لم يكن لهم أن يقتنوا النور الحقيقى فى داخلهم ، لكن كان يكفى بالنسبة لهم الوقوف فى حضرة الله . . .

فموسى النبى إذ بقى «عند الرب أربعين نهاراً وأربعين ليلة» خر ٣٤:٢٨ عندما نزل من جبل سيناء «لم يعلم أن جلد وجهه يلمع فى كلامه معه» خر ٣٤:٢٩ . حتى أن هرون وكل الشعب خافوا أن يقتربوا إليه . فكان يضع برقعاً على وجهه عند حديثه معهم ، ينزعه عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه . . .

وابراهيم أب الآباء سر عظمته الوقوف فى حضرة الله ، فتنعكس إنطباعات كمال الله وأنواره عليه ، منفذاً كلمات الله إليه « سر أمامى وكن كاملا » . وهنا الامر « كن كاملا » تعنى حتمية الكمال عند السير أمامه ...

ويوسف الشاب الصغير الذى لم يكن له كتاباً مقدساً ولا كاهناً ولا مكاناً للعبادة ، لم يتعلم شيئاً سوى أن يقف فى حضرة نور الأنوار ، لهذا كان قلبه الصغير ملتهباً ناراً ، مضيئاً بنور عجيب . . . كافياً أن يحرق أشواك

إمرأة فوطيفار ، وأن يبدد قدامه قوة الظلمة الكامنة فى قلبها وحيلهـــا وأخاديعها وتهديداتها ...

وإيليا النبى ، سر نوره أنه وهو واقف فى حضرة الملك والناس يقول « حى هو الرب الذى أنا واقف أمامه » ...

ونحميا المسبى كان لنور قلبه أن يبدد ظلمـــة الأشرار ، لأنه قد تدرب أن يرفع قلبه إلى حضرة نور الأنوار فى كل وقت وفى أى زمان ... إذ يقول عنـــد إجابته على سؤال الملك « فصليت إلى إله السماء وقلت ... » وكأن كل ما يشغل ذهنه فى حضرة الملك هو أن يطلب منه نور الأنوار أن يهبه نعمة ...

هذه أمثلة من رجال العهد القديم ... الذين إستطاعوا قبل إتمـــام المصالحة على الصليب - ولكن على رجاء المصالحة - أن يغتصبوا نور الله ، فتتبدد أمامهم كل ظلمة ... إذ لا تقوى الظلمة على النور الحقيقى ...

فبقدر ما ينعكس النور الحقيقى عليك يعمل الحق فيك بقوة وشجاعة ، تتعبد بلا خوف ولا خجل ، تشهد ليسوع دون حرج ... مردداً مع ميخا النبى « ولكننى أراقب الرب . أصبر لإله خلاصى . يسمعنى إلهى . لا تشمتى بى ياعدوتى . إذا سقطت أقوم . إذا جلست فى الظلمة فالرب نور لى . احتمل غضب الرب لأنى أخطأت إليه حتى يقيم دعواى ويجرى

حقى . سيخرجنى إلى النور سأنظر بره . وترى عدوتى فيغطيها الخزى القائلة لى أين هو إلهك » ميخا ٧ : ٧ - ٩ .

هكذا كل رجال الصلاة ، تتبدد أمامهم كل ظلمة ، ظلمة الشيطان وقسوته ، ظلمة الخطية ولذتها الخادعة ، ظلمة تعييرات الآخرين ، ظلمة شهوات الجسد ...

هذا أما فى العهد الجديد إذ جاء الله الكلمة فى ملء الزمان متجسداً ، منادياً « أنا قد جئت نوراً إلى العالم حتى كل من يؤمن بى لا يمكث فى الظلمة» يو ١٢ : ٤٦ . جاء النور الحقيقى المتحف بالنور كثوب (مز ١٠٤ : ٢) ، جاء الذى ليس فيه ظلمة البتة (١ يو ١ : ٥) ، جاء لكى يشرق فى الظلمة بنوره (أ ش ٥٨ : ١٠) داعياً إيانا من الظلمة إلى النور (١ بط ٢ : ٩) حتى نسلك فى النور ونصير أبناء للنور وأبناء للنهــــار (١ تس ٥ : ٥) ، بل ونصير نوراً للعـــالم (مت ٥ : ١٤) ! ...

هكذا يتحقق قول النبى « لا تكن لك بعد الشمس نوراً فى النهار ولا القمر ينير لك مضيئاً بل الرب يكون لك نوراً أبدياً وإلهك زينتاً . لا تغيب بعد شمسك ، وقمرك لا ينقص لأن الرب يكون لك نوراً أبدياً » أ ش ٦٠ : ١٩ ، ٢٠ .

صار لنا أن نغلق على الرب فى قلوبنا ،فيكشف لنا روح الحق أسرار الله

التى لا ينطق بها ، يدرك محبة الله اللانهائية ، ويكتشف الحق ذاته « أنا هو الطريق والحق والحيـــاة » . وعندئذ لا تقدر الظلمة أو العواصف أن تجتاح القلب فى داخله ، بل يرتفع القلب على جبل عال ، فوق العالم كله بمغرياته وآلامه ، الجسد بشهواته ، الناس بمديحهم أو ذمهم ... يصير مع بطرس ويعقوب ويوحنا هناك حيث يتجلى له يسوع فيراه ملتحفاً بالنور ، وجهه مضيئاً كالشمس ، وثيابه بيضاء كالنور ، عندئذ يصرخ مع بطرس « يارب جيد أن نكون ههنا » مت ١٧ : ٤ .

ومن يرتفع مع الرب ، يكتشف بالرب أسراراً عميقة ، يدرك أعماق نفسه ، ويتلامس مع أعماق الحب الإلهى ، ويفهم مكنونات الحياة ، وتتفتح أمامه أسرار الحياة الأخرى ، ويثبت فى ايمانه ورجائه بالرب ... عندئذ « نتكلم بحكمة بين الكاملين . ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ولا عظماء هذا الدهر الذين يبطلون . بل نتكلم بحكمة الله فى سر . الحكمة المكتومة التى سبق فعينها الله قبل الدهور لمجدنا . التى لم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر ... بل كما هو مكتوب مالم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه . فأعلنه الله لنا نحن بروحه . لأن الروح يفحص كل شىء حتى أعماق الله ... أمور الله لا يعرفها أحد الا روح الله » ١ كو ٢ : ٦ - ١١ .

لقـــد رأى نثنائيل الرب متجسداً ... لكن كان ينقصه أن يكشف له

الرب عن أسرار أخرى « سوف ترى أعظم من هـذا » يو ١ : ٥٠ . إنه محتاج أن يدرك من هو يسوع المتجسد ويدركه فى أعماق قلبه ، محتاج أن يجلس مع مريم أخت لعـــازر تحت قدمى النـــور الحقيقى ليرى ويتمتع بالنصيب الصالح الذى لا ينزع عنه . يكشف له صديقه يسوع أسراره ، كما يكشف العريس قلبه لعروسه ، لأنه «ليس أحد يعرف الإبن إلا الآب. ولا أحـــد يعرف الآب إلا الإبن . ومن أراد الإبن أن يعلن له » مت ١١ : ٢٧ ...

هكذا يعلن العريس الحقيقى لعروسه خفيات الحكمة (أى ١١ : ٦)..

† أيها النور غير المنظور ! ...

أيها البهاء الذى لا يراه بهاء آخر !

أنت هو النور الذى تختفى أمامك كل الأنوار المخلوقة !

أنت هو البهاء الذى ينطفىء قدامك كل بهاء خارجى !

أنت هو « النـــور » مصدر كل الأنوار ، و « البهـاء » ينبوع كل بهـــاء !

أنت هو النور والبهاء ، أمامك تصير كل الأنوار ظلمات ، وكل ضياء بالنسبة لك ليس إلا ظلاماً !

أنت هو البهاء الذى بك تصير الظلمة نوراً ، وبك يتلألأ الظلام لمعاناً !

أنت هو النور الأسمى ، لا تحجبك سحابة ما ، ولا يعوقك بخار ... يعجز الليل أن يسدل بظلامه عليك . لا يعوقك حاجز ، ولا تغرقك ظلال ! ...

أخيراً . أيها النور الذى ينير الخليقة الداخلية على الدوام ، إبتلعنى فى هوة جلالك ، حتى أعاين كل أعماقك . بقوة بهاء لاهوتك ذاته وعمل البهاء المنعكس على منك !

لا تتركنى قط ، لئلا يتزايد جهلى وتكثر شرورى . فبدونك أصير فارغاً وبائساً ! ..

بدونك لا يكون لأحد صلاح ، إذ أنت هو الحق والصلاح الحقيقى وحده ! ...

هذا ما أعترف به ؛ وهذا هو ما أعرفه ، يا الله إلهى ، انه حيثما وجدت بدونك لا يكون لى غير الشقاء - فى الداخل كما فى الخارج - لأن كل غنى غير إلهى إنما هو بالنسبة لى فقر مدقع !

اغسطينوس

† « ارسل نورك وحقك ، هما يهديانى ويأتيان بى إلى جبل قدسك وإلى مساكنك » مز ٤٣ : ٣ .

« النور » و « الحق » هما بالحقيقة إسمان يعبران عن واحد (الله) .
لأنه ماهو « النور » الإلهى الا « الحق » الإلهى ؟ « والحق » الإلهى إلا « النور » الإلهى ؟ ! وأقنوم المسيح هو كلاهما .

يقول « أنا هو نور العالم . من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة » يو ٨ : ١٢ ، كما يقول « أنا هو الطريق والحق والحياة » يو ١٤ : ٦ .

هو نفسه « النور » ، وهو بنفسه « الحق » ... فليأت اذاً وليهدينا ...

أما « جبل قدسه » (الذى يأتى إليه المسيح) فهو الكنيسة المقدسة . إنها الجبل الذى بحسب رؤيا دانيال (٢ : ٣٥) الحجر الصغير الذى « صار جبلا كبيراً وملأ الأرض كلها » ساحقاً (التمثال العظيم) ! ...

اغسطينوس

إلهى ... أنت نورى . إفتح عيناى فتعاينا بهاءك الإلهى ، لأستطيع أن أسير فى طريقى بغير تعثر فى فخاخ العدو !

حقاً ، كيف يمكننى أن اتجنب فخاخه مالم أرها ؟ !

وكيف أقدر أن أراها إن لم أستنر بنورك ؟ !

ففى وسط الظلمة يخفى « أب كل ظلمة » هذه الفخاخ حتى يصطاد كل من يعيش فى الظلمة . هذا العدو الذى يود أن يكون أبناءه محرومين من نورك ومن سلامك الكامل .

فإن كان أحد يمشى فى النهار لا يعثر ، لأنه ينظر نور هذا العالم ، ولكن إن كان أحد يمشى فى الليل يعثر لأن النور ليس فيه (يو ١١) .

وما هو النور إلا أنت يا إلهى !

أنت هو النور لأولاد النور ! نهارك لا يعرف الغروب ! نهارك يضيء لأولادك حتى لا يتعثروا !

أما الذين هم خارج عنك ، فإنهم يسلكون فى الظلام ويعيشون فيه !

إذاً فلنلتصق بك يا من أنت هو نور العالم !

ما حاجتنا أن نجرب كل يوم الإبتعاد عنك ؟ ! لأن كل من يبتعد عنك أيها النور الحقيقى يتوغل فى ظلام الخطية ، وإذ تحيط به الظلمة لا يقدر أن يميز الفخاخ المنصوبة له على طول الطريق !

ليتنا لا نبتعد عنك كى لا نسقط فى حبائل العدو المميتة .

ولكن ما هو أمر وأقسى : أن نسقط فى الفخاخ ولا ندرى . نحسب أنفسنا أننا واقفون فلا نبذل جهداً لكى نقف .

ربى وإلهى ... يا نور نفسى ! لا تتوقف قط عن إنارة خطواتى ! حتى إذا ما إكتشفت الخطر ابتعد عنه فلا أسقط ، ولا يصيرنى عدوى (الشيطان) ، هذا الذى يبذل كل جهده أن يميتنى . لكن فليتبدد العدو (الشيطان) أمام وجهك ، كما يذوب الشمع قدام النار !

إنى أتكلم عن ذلك السارق الذى أراد أولا وأخيراً أن يغتصب مجدك ، وإذ هو مملوء بالغرور ألقى بنفسه فى الهاوية التى حفرها لنفسه !

أنت طردته من الجبل المقدس ، وأقصيته عن عرشك ، ونزعته من وسط نجومك التى هى أكثر بهاءً فى السماء ! ...

والآن ربى وحياتى ، إنه منذ سقوطه العظيم لا ينشغل إلا كيف يطارد أولادك !

الكراهية التى يكنها لك أيها الملك العظيم ، تجعله يعمل على إفساد خليقتك التى جبلتها على صورتك ! ...

أيها الرب فوقى ، إسحقه أمام أعيننا نحن خرافك ، وأضىء لنا جيداً حتى نتجنب فخاخه الخادعة ونأتى إليك مبتهجين !

إلهى ... أنت تعلم كل هذه الأمور أكثر منى !

أنت تعرف إلى أى درجة من السعر والعناد قد بلغ إليها هذا المطارد لنفوسنا !

أنت لست بمحتاج إلى من يعرفك هذا ، لأنه ليس شىء مخفى عنك . لكن استمع إلى شكواى أيها الديان إلى الأبد . فإنى أقدم شكواى ضد عدوى عند قدمى عظمتك . دنه يا الله وانقذ أولادك ، فإنك أنت هو القوة !

إنه عـدو ماكر وخادع ، لا يمـكننا ـ بدون نورك ـ أن ندرك طرقه الملتوية ونعرف أشكال وجهه المتعددة . فتارة نراه ههنا ، وأخرى هناك !

تارة يظهر كحمل وأخرى كـذئب !

تارة يظهر كنور ، وأخرى كظلام !

إنه يعرف كيف يغير شكله ويشـــكل خططه حسب ظروف الإنسان وأوقاته . . فلـكى يخدع المتعبين يحزن معهم !

ولـكى يجذب القلوب المبتهجة يلوث أجواء أفراحهم !

ولـكى يقتل الحارين بالروح يظهر لهم فى شكل ملاك نور !

ولـكى ينزع أسلحة الأقوياء روحياً يظهر فى شكل حمل !

ولـكى يفترس ذوى الحياء يتحول إلى ذئب !

وفى كل خداعاته ، يخيف البعض بمخاوف ليلية ، والآخرين بسهـام تطير فى النهار . هؤلاء ينزلق بهم فى الشر فى الظلمة ، والآخرون يحاربهم علانية فى وقت الظهيرة (مز ٩١) !

فمن يقدر أن يميز طرق مكره المختلفة ؟ !

من يقدر أن يميز ذاك الذى يتنكر دوماً ؟ !

من يقدر أن يحصى أنيابه المرعبة ؟ !

سهامه يخفيها فى جعبته ، وحيله يخبئها إلى اللحظة المناسبة للسقوط !

إلهى . . . أنت رجائى . . . بدون نورك ـ الذى به نرى كل شىء ـ يصعب علينا أن نكتشف مناورات الشيطان وحيله ! . . .

اغسطينوس

† أيها النور الحقيقى ، الذى يتمتع به طوبيا عند تعليمه إبنه ، مع أنه كان أعمى .

أيها النور ، الذى جعل اسحق ـ فاقد البصر ـ يعلن بالروح لإبنه عن مستقبله .

أيها النور غير المنظور ، يا من ترى أعماق القلب البشرى .

أنت النور ، الذى أنار عقل يعقوب ، فكشف لاولاده عن الأمور المختلفة !

لقد خيم الظلام فى نفسى حتى أعماق خباياها ، لكن أنت هو النور ! !

الظلال الكثيفة غطت محيط قلبى ، لكن أنت ، أنت هو الحقيقة المتلألئة دائماً .

أيها الكلمة خالق الكل ، قبل كل الخليقة ... أنت هو مدبر الكون ، وبدونك ليس له وجود .

أنت هو الكلمة القائل « ليكن نور » فكان نور . قل هذه العبارة الآن أيضاً ، حتى تستنير عيناى بالنور الحقيقى . وأميزه عن غيره من النور . فبدونك كيف أقدر أن أميز النور عن الظلمة ، والظلمة عن النور ؟ !

نعم . . . خارج ضيائك ، تهرب الحقيقة منى ، ويقترب الخطأ إلى ، يملأنى الزهو ، وتهرب الحقيقة منى ! ! يصير فى إرتباك بدلا من التمييز ، يصير لى الجهل عوض المعرفة ، العمى عوض التبصر ، لا يعود لى طريق موصل إلى الحياة . . .

اغسطينوس

† مصباحاً واحـــداً أنظر ، وبنوره أستضىء ، والآن أنا فى ذهول ، أبتهج روحياً . إذ فى داخلى ينبوع الحيـاة ، ذاك الذى هو غاية العـالم غير المحسوس !

الشيخ الروحانى

† إحمل نير ربك بقلبك ، وعجب عظمته فى عقلك دائمـاً ، فتسكب فيك نور ربك الوهج الذى يضىء قلبك !

الشيخ الروحانى

٣ « كثيرون يقولون من يرينا الخيرات . قد أضاء علينا نور وجهك

يارب » مز ٤ : ٦ .

كثيرون يقولون : من يرينا الخيرات ؟

هذا قول يومى وتساؤل مستمر من الأغبياء والأشرار ، يردده أولئك الذين يتوقون إلى سلام الحياة الزمنية وهدوئها دون أن يجددهما بسبب قسوة الحياة ! ... كما يردده أولئك الذين يشكون فى أمر الحياة المقبلة التى وعدنا بها وييأسون قائلين : من يدرينا أن هـذا صحيح ؟ أو من جاءنا من (المنتقلين) يخبرنا بها ؟ .

لقد أظهر المرتل ما هى (الخيرات ؛ مجيباً على التساؤل : من يرينا الخيرات ؟ إله الخير هو أنه « قد أضاء علينا نور وجهك يارب » مز ٤ : ٦ .

هذا النور هو الصلاح الكامل الحقيقى الذى للانسان ، النور الذى يراه بالقلب لا بالعين .

يقول « أضاء علينا » (أو ختم علينا) وذلك كما تختم صورة الملك على الفلس . فالإنسان قد خلق على صورة الله ومثاله . (تك ١ : ٢٦) الأمر الذى أفسدته الخطية . لذلك فإنه يختم الانسان بالصلاح الحقيقى الأبدى (بالنور) فى الميلاد الثانى (المعمودية) .

وأظن أن هذا هو ما عناه عندما قال الرب - إذ رأى العملة التى صكها قيصر - «إعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله» مت ٢٢ : ٢١ . فكأنه يقول: كما أن قيصر يطلب منكم الختم الذى لصورته ، هكذا أيضا الله !

إن عملته المصكوكة ترتد إليه باستضاءة النفس بالله وختمها بنور وجهه

(مز ٤ : ٦) .

اغسطينوس

† « يا الله ، إلهى أنت . إليك أبكر » مز ٦٣ : ١ .

ماذا أصنع ؟ أننى أبكر ولا أنام .

وأى نوم لأن هناك نوم للنفس ، ونوم للجسد ؟ فالجسد إن لم ينم ، يخور الإنسان ويضعف جسده . ولا يعود جسدنا الخائر يقدر أن يحمل نفساً يقظة ويثابر فى الأعمال ...

لقد وهب الله للجسد نوماً ، به تنتعش الأعضاء ، فيقدر أن يعضد نفساً ساهرة .

ولكن يلزمنا أن نكون حذرين . لئلا تنام النفس ذاتها، لأن نوم النفس شر .

صالح هو نوم الجسد إذ به تنتعش صحة الجسد . أما نوم النفس

فى نسيانها لله ... لذلك يقول الرسول ... « استيقظ أيها النائم وقم من الأموات فيضىء لك المسيح » أف ٥ : ١٤ .

هل كان الرسول ييقظ انساناً نائماً بالجسد ؟ لا . بل نفساً نائمة ، لكى تسير وتستضىء بالمسيح .

هكذا بنفس الطريقة يقول هذا الرجل « يا الله . إلهى أنت . إليك أبكر » ... فالمسيح يضىء النفوس ويجعلها مستيقظة ، لكن إن أبعد نوره تنـــام .

ولهـــذا السبب يقول مزمور آخر « أنر عينى لئلا أنام نوم الموت » مز ١٣ : ٣ ...

اغسطينوس

† † †

رابعاً: الله ينبوع الصلاح

« ليس أحد صالح إلا الله وحده » لو ١٨ .

الله وحده كل الصلاح . القادر أن يعكس صلاحه على خليقته فتصير صالحة . « كونوا قديسين كما أنا أيضا قدوس » .

إعرفى يا نفسى هذه الحقيقة ، واغرقى فى لجة صلاحه ، وادخلى إلى خيره الحقيقى غير المتغير ، وانصهر أحشائى جمراً متقداً يرتفع طيبه إلى حيث صلاح الله ! ...

لقد وهبك إمكانيه الصلاح ... خلقك على مثاله ... حتى تنجذبين إليه وتشبعين منه !

أما وقد سقطتى فى الخطية ، فإنه وإن كان الشيطان لم يستطع أن ينزع عنك حبك للصلاح ، لكنه خدعك فى مفهوم الصلاح ، فظننتى ماهو غير صالح صالحاً ، وحسبت الصلاح غير صلاح ...

صرت كالسمكة التى تظن فى الطعم خيراً ، وهى لا تدرى ما يكمن لها فيه ... هكذا حسبتى حب الكرامة والمديح ، وغنى العالم وأمجاده الزائلة ، المتع والملذات الشهوانية .. حسبتى هذا كله صلاحاً !

والآن صرت فى عوز الى الحكمة لتكونى تامة وكاملة ... أطلبيها من الله الذى يعطى الجميع بسخاء ولا يعير (يع ١ : ٤ ، ٥) .

لقد أمرك الرب « سر أمامى وكن كاملا » تك ١٧ : ١ . إن سرت أمامه فى حضرته ـ والتصقتى به فحتما تصيرين كاملة .

✝ إن وجد فى شىء صالح ، إنما مصدره أنت ... فالخير الذى هو فى هو خيرك أنت أيها الصالح ، منك قد تقبلته !

من يعيننى على الوقوف إلا أنت يا إلهى ؟ !

وما الذى يسقطنى غير إتكالى على ذاتى ؟ !

إننى سأبقى غارقاً فى الطين ما لم تجتذبنى !

وأبقى أعمى ما لم تفتح عيناى !

وأبقى ساقطاً لا أقوم قط ما لم تعيننى يداك ! ... آه ! أننى أهلك تماماً ما لم تحرسنى عنايتك !

اغسطينوس

✝ كم أنا بائس ؟ !

إلهى ... متى تفارقنى هذه الطبيعة الفاسدة ، وتعمل فى قوتك الكاملة ؟ !

إلهى ... لذيذة هى الوحدة والسكون والحق والنقاوة ، هذه كلها التى هى لك ! أما أنا فألهو بالضوضاء والصخب والباطل والرذيلة ! ...

أعود فماذا أقول بعد ؟ ! أنت هو الخير الحقيقى ، رحوم ، قدوس ، عادل ... أما أنا فشرير ، محب لذاتى ، خاطىء ، ظالم ! ...

أنت النور ، أما أنا فظلمة !

أنت الحياة ، أما أنا فموت !

أنت الطبيب ، أما أنا فمريض !

أنت الفرح ، أما أنا لحزن !

أنت الحق الصادق ، أما أنا فبطلان حقيقى ... مثلى مثل أى إنسان على الأرض !!!

بأى لغـــة تريدنى أن أحدثك ياخالقى ؟ ! أتوسل إليك أن تتفضل فتصغى إلى . إننى من صنع يديك ، وهلاكى أمر مخيف !

إنى جبلتك ، وها أنا أموت !!

إنى من صنع يديك ، وها أنا أنحدر نحو العدم !!

إن كان لى وجود ، فأنت موجدى ، « يداك صنعتانى وأنشأتانى » من ١١٩ : ٧٣ . يداك اللتان سمرتا على الصليب ، فليعطيانى السلام . لأنه هل تحتقر عمل يديك ؟ !

آه . تطلع إلى جراحاتك العميقة ، فقد نقشت إسمى فى يديك ! ! إقرأ إسمى وخلصنى !

إن نفسى التى تتأوه قدامك ، هى من عمل يديك . إخلق منى خليقة جديدة . فهذا هو عملك . لذا فهى لا تكف عن الصراخ إليك قائلة : يا أيها الحياة ، إحيني من جديد !

إنها من جبلة يديك ، تلتف حولك متوسلة إليك أن ترد إليها جمالها الأول ! ...

إغفرلى يا إلهى ، ما دمت قد سمحت لى بالحديث معك . لأنه من هو الإنسان حتى يتكلم مع الرب خالقه ؟ !

نعم . سامحنى ! سامح تجاسرى ! سامح عبدكِ الذى تجاسر ليرفع صوته أمام سيده !

إن الضرورة لا تعرف قانوناً ! فالألم يدفعنى إلى الحديث معك ! والكارثة التى حلت بى تجعلنى استدعى الطبيب لأنى مريض ! إننى أطلب النور لأنى أعمى ! أبحث عن الحياة لأنى ميت ! ومن هو هذا الطبيب والنور والحياة إلا انت ؟ !

يا يسوع الناصرى إرحمنى !

يا إبن داود إرحمني !

يا مصدر الرحمة إصغ الى صرخات المريض !

أيها النور العابر فى الطريق ، توقف أمام الأعمى ! امسك بيده ، حتى يقترب اليك ! بنورك يا رب إجعله يعاين النور ، وبك يحيا !

ألمر الميت حتى يخرج من القبر ! ...

آه ! يا إلهى !! انى سأستغيث قبلما أهلك ، أو على الأقل أستغيث لئلا أهلك ، حتى أستحق السكنى فيك !

انك تتألم عندما أحدثك عن بؤسى ، ومن غير خجل أعترف لك أنى عدم !

إسرع واعنى ، أنت قوتى وعونى وصلاحى وحصنى !!

إسرع أيها النور ، الذى بدونه لا أقدر أن أرى ! ...

عضدنى أيها المجد الأبدى ، يا فرحى ، اكشف لى ذاتك يا الهى حتى أحيا !

اغسطينوس

† « الله » بكونه « صالح » قيل عنه أنه « محبة » ١ يو ٤ : ٨ ، ١٦ .

و « المحبة لا تصنع شراً للقريب » رو ١٣ : ١٠ ، بل تصبر ولا تنتقم قط . هي في كلمة « تصنع الخير للجميع بكونك صورة الله » . عندئذ يقال « المحبة هي تكميل النـــاموس » رو ١٣ : ١٠ .

اكليمندس الوسكندري

† † †

الفصل الثالث

الحب الإلهي والوصية

† مفهوم الوصية

† الوصية والحرية

† الوصية والأبوة

تقديم

الله كما تسميه الكنيسة « محب البشر » ، « صانع خيرات » . أحب الإنسان من قبل أن يوجد وصنع به خيراً إذ خلق له الفردوس يقتات منه جسده ، وأعطاه ذاته فردوساً تشبع به نفسه وتستريح !

ولكن بقى سؤال يحير أذهان الكثيرين : إن كان الله محباً للبشر ، وصانع للخيرات ، لماذا أعطى وصية ؟ !

أما كان الله قادراً ألا يعطيه وصيـــة حتى يبقى ويبقيه فى الفردوس الى الأبد بلا سقوط ؟

أما كان يعلم ضعف الإنسان وإمكان سقوطه ؟ !

ليعطنا الرب فهماً لندرك ما هو مفهوم الوصيـة ؟ وما هو دلالتها ؟ وهل هى من أعمال الله المملوءة حباً ؟ !

† † †

مفهوم الوصية

الوصية وحياة الإنسان

الوصية فى حقيقتها هى علامة حب من الله نحو الإنسان محبوبه .

هى عهد ، سمح الله به لآدم ، حتى ببقائه أميناً فى عهده ، يبقى مرتبطاً بالله مصدر حياته ، فلا يستقل بذاتيته ويرجع إلى أصله « التراب » !!

هى عطية ثمينة مقدمة من يدى إله محب ، بقصد إرتباط محبوبه به ، وإذابة الإرادة البشرية فى إرادته غير المتناهية ، دون أن يفقد الإنسان شخصيته أو حريته ، بل باحترام الإنسان للعهد وتمسكه به ، ينال الانسان كرامة لا يستطيع مخلوق آخر أن ينالها .

فالوصية فى مكنونها لم تكن حملا أو ثقلا يسقط تحت عبئه الانسان ، كما نتصور نحن الآن بعد السقوط . لا ، بل هى بحق صادرة عن أحضان إلهية محبة ، تريد أن تحتفظ بالإنسان فيها ليتمتع بكل الإنعكاسات التى للطابع الإلهى على صورته إلى الابد ، وليس لاجل إذلاله ...

وتظهر أعماق محبة الله فى وصيته لآدم انها كانت أسهل وصية

ممكنة . . . وكانت الوصيـــة الأولى والأخيرة لو لم يعطى !

كان العهد مادته شجـرة (تك ٢ : ١٦ ، ١٧) فى وسـط فردوس مملوء بالأشجار ، ليس لها ميزة عن بقية الأشجار المحيطة بها ...

وكان الناموس الإلهى مكوناً من بند واحـــد ، وهو « لا تأكل » تك ٢ : ١٧ ... وما كان أسهل على آدم أن يحيط هذه الشجرة بأشجار أخرى كثيرة ، لو كان أميناً ومحباً غيوراً على بقاء نفسه مرتبطة بالله مصدر حياته .

فناموس الله بالنسبة لآدم قبل السقوط ، كما بالنسبة للإنسان — بعد ما يتنعم بمغفرة خطاياه — موضوع سروره وبهجته .

لذلك عندما تكلم المرتل عن « الرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار وفى طريق الخطاة لم يقف وفى مجلس المستهزئين لم يجلس » مز ١ : ١ قال « فى ناموس الرب مسرته ، وفى ناموسه يلهج نهاراً وليلا » . لم يقل « تحت الناموس » ، بل « فى ناموس الرب » لأن الناموس لم يصر عبئاً ثقيلا نرزح « تحته » إلا بالسقوط فى الخطية .

فقبل السقوط كنا فى الناموس وليس تحته ، وكان موضوع سرورنا وليس عبئاً ثقيلا .

أما وقد أخطأ الجميع (رو ٣ : ٢٨) فإنه « وجدت الوصية التى للحياة

هي نفسها للموت . لأن الخطية وهي متخذة فرصة بالوصية خدعتني بها وقتلتني » رو ٧ : ١٠ ، ١١ .

« إذاً الناموس مقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحه ... فإننا نعلم أن الناموس روحي وأما أنا فجسدي مبيع تحت الخطية » رو ٧ : ١٢ ، ١٤ .

الوصية والمشاركة في الحب

الوصية في نظر آدم قبل السقوط كان لها مفهوم آخـــر . إنها شهوة يبتغيها ، لأنه بدونها لا يقدر أن يستطيع مشاركته حب الله له ...

تصور معي إنساناً يقدم لعروســـه فوق ما تطلب وأكثر مما تحتاج ، يغدق عليها بالحب والعطف والحنان بلا كيل أو حـــدود ... أما تشتهي العروس أن يترك لها عريسها مجالا — مهما كان صغيراً — تعبر فيه عن حبها له ؟!!

فالعريس الذي لا يترك لعروســـه مجالا لرد محبته إليها بمحبته ، ولو بطاعتها له في أقل الأمور ، يكسر قلبها ويحزنها ! ...

فبدون الوصية ما كان لآدم أن يستطيع المشاركة في الحب ... ففي حب قدم الله لآدم الوصية ، حتى يعبر هذا المحبوب عن حبه لله ، الذي هو إنعكاس لحب الله عليه ...

هذا المفهوم كشفه لنا يسوع عندما قال « إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى » يو ١٤ : ١٥ .

« الذى عنده وصاياى ويحفظها فهو الذى يحبنى . والذى يحبنى يحبه أبى. وأنا أحبه وأظهر له ذاتى » يو ١٤ : ٢١ .

فبقدر ما يحفظ الإنسان الوصية يعلن حبه لله ، أو قل يتجاوب مع حب الله له ... عندئذ يدخل فى شركة أعمق فأعمق فى حب الله اللانهائى ... هذا هو عمل الوصية ، وهذا هو هدفها !

تغير نظرتنا نحو الوصية

رأينا الوصية كما هى ، وكما أرادها الرب ، لكن بالسقوط خسرنا النظرة السليمة ، فصارت الوصية بالنسبة لنا ليست إلا أوامر ونواه ... صرنا نرى الله صعباً وقاسياً فى وصاياه ، يطالبنا بما ليس فى قدرتنا ... يريد أن يحرمنا ويذلنا ويفقدنا اللذة والمتعة فى العالم.

هذه هى ثمار إستقلال الإنسان بذاتيته وانفصاله عن الله ... لقد غلظ قلبه وتشوهت نظرته ومفاهيمه ... « القلب أخدع من كل شيء وهو نجيس من يعرفه » أر ١٧ : ٩ . وكما يقول المرتل « زاغ الأشرار من الرحم. ضلوا من البطن متكلمين كذباً » مز ٥٨ : ٣ . ويؤكد الرسول بولس.

« إذ هم مظلمو الفكر ومتجنبون عن حياة الله لسبب الجهل الذى فيهم بسبب غلاظة قلوبهم » أف ١٤ : ١٨ .

هذا ما صنعته الخطية أنها شوهت نظرتنا الى أعمال الله .

ولقد ظهـــر ذلك فى حياة الفريسيين الذين كانوا بحسب دراستهم فى الكتاب المقدس الذى بين أيديهم قادرين على التعرف على يسوع ورسالته وأعماله ... وكنا نظن أنهم سيكونون فى مقدمة الشاهدين عنه والمؤمنين به والمدركين حبه ، لكن الخطية طمست عيونهم عن التلاقى بالحب الإلهى. رأوا يسوع عنيفاً ، جاء يختلس مراكزهم ويسلب كرامتهم ويفقـــدهم العصمة التى أحاطوا أنفسهم بها ... لقد غشتهم الخطية عن فهم الحقيقة . وقد أوضح لهم الرب ذلك قائلا « لماذا لا تفهمون كلامى . لأنكم لاتقدرون أن تسمعوا قولى . أنتم من أب هو أبليس وشهوات أبيـــكم تريدون أن تعملوا » يو ٨ : ٤٣ ، ٤٤ .

فبكسر الوصية فقد آدم مفهوم الوصية ، وبكسرها خسر الفريسيون قدرتهم على التعرف على الله ومحبته ...

فالوصيـــة فى ذاتها لها القوة للكشف عن مفهومها إن خضعنا لها ، وارتبطنا بها ... إذ هى قادرة بالروح القدس أن تقـــودنا الى التبكيت الحقيقى فالتوبة والاعتراف ، مدركين عمق محبة الله لنا كغافر للخطايا باستحقاق دمه .

هذا ما يؤكد الرب فى قـــوله « إن ثبتم فى كلامى فبالحقيقة تـكونون تلاميذى . وتعرفون الحق والحق يحرركم » يو ٨ : ٣١ ، ٣٢ . « الـكلام الذى أكلمكم به روح وحياة » يو ٦ : ٦٣ . « لأن كلمة الله حية وفعالة » عب ٤ : ١٢ .

† † †

† يختفى الله فى وصاياه ، فمن يطلبه يجده فيها (بتنفيذه إياها) .

† لا تقل إننى أتممت الوصايا ولم أجد الرب ، لأن من يبحث عنه بحق يجد سلاماً !

مرقس الناسك

الوصية والحرية

الوصية فى حقيقتها علامة من علامات حب الله المتدفق نحو الإنسان ، ليس فقط فى تقديم الفرصة لآدم للتعبير عن مشاعر الحب نحو من أحبه أولا ... أو تهيئة المجال الذى به يرتبط الإنسان بمصدر وجوده فلا يرتد إلى أصله مرة أخرى (التراب) ... لكنها تحمل أيضا فى مدلولها حرية الإنسان وسيطرته على نفسه ...

الإنسان على مثال الله من جهة حرية الإرادة ، وسيطرته على نفسه . فعظمة الإنسان تكمن لا فى مجرد سيطرته على طيور السماء وأسماك البحر وكنوز الأرض ... بل بالأكثر فى سلطانه على نفسه ...

كيف يمكن أن يكون له سلطاناً على نفسه وحرية لإرادته مالم توجد وصية ، له أن يطيعها أو يعصاها ؟ !

فالوصية ـ بالنسبة للإنسان ـ تحمل تكريماً منه إليه ... فيها اعلان عن حرية الانسان ، وقوته وقدرته ، لأنه من استحق أن يوهب له وصية من قبل الله غير الإنسان ؟ ! فلو لم يكن للإنسان قدرة على تنفيذ الوصية ـ كما على كسرها ـ ما كان الله قد أفرده بها ؟ ! !

على نفس المثال ، عندما قدم لنا الرب وصايا ـ نراها صعبة أو كما يظنها البعض خيالية ، لم يقصد أن يعجزنا فى التنفيذ ، أو يحطم نفوسنا بالفشل ، إنما أراد أن يكشف للإنسان عن الإمكانية الفائقة التى فى داخله ... إنها تكريم لنا ، اننا بالمسيح قادرون على تنفيذ ما يبدو صعباً ومستحيلا ...

✝ على أى الأحوال فإن الوصية التى قد وجدت بها خاطئاً ، وإنحرفت بها عن موضوع السرور ، قد فرضها الصلاح (الله) على الانسان بقصد سعادته .

لقد قصد بها إرتباطه بالله ، لكى لا يظهر مخلوقاً حقيراً بل يكون حراً ، حتى لا ينزل بنفسه إلى مستوى الحيوانات الأخرى (التى ليس لها حرية الإرادة) ...

لقد مكنه ككائن بشرى أن يفتخر ، بأنه الوحيد الذى كان مستحقاً ان يتقبل وصايا من قبل الله ، بكونه كائن قادر على التعقل والمعرفة ، يضبط نفسه فى هدوء برباطات الحرية العاقلة ، خاضعاً لله الذى أخضع له كل شىء .

ولأجل ضمان المحافظة على هذه الوصية ، قدم الصلاح أيضا مشورة تساندها هذه العقوبة « يوم تأكل فيها موتاً تموت » تك ٢ : ١٧ .

إنه عمل مملوء حنواً ، عظيماً من قبل الله ، أن يشير إليه عن مصادر العصيان ، لئلا يدفعه جهله بالخطر نحو الإهمال فى الطاعة ... حقاً لقد عرض العقوبة ، لكنه لم يكن يرغب فى أن تكون بلا شفاء .

تعلموا إذاً صلاح إلهنا فى هذه الأمور جميعها .

تعلموا صلاحه فى أعمـــاله العظيمة ، وبركاته المتدفقة ، وانعاماته الكثيرة ، وتدابيره اللطيفة من جهـة وصاياه وتحذيراته ... هكـذا هى صالحة ورحيمة !!!

العلامة ترتليان

† لقد أعطى الله الإنسان حرية فجعله سيداً على إرادته وسلطانه ، مشيراً الى أن ظهور الإنسان كصورة لله على ومثاله لم يكن بأمر آخر مثل هذا البنيان الذى لطبيعته .

لم يكن (على صورته ومثاله) من جهة تركيب الجسد ... بل من جهة السمة التى لذاك الجوهر الذى أخذه من الله (كنسمة من فمه) ـ أى من جهة روحانيته التى إستجابت لأن تكون على شكل الله ، ومن جهة الحرية وقوة إرادته .

هكذا قد تأيدت حالة الإنسان بالوصية ذاتها التى فرضها الله عليه .

فالوصية لا تقدم لمن ليس له فى سلطانه إمكانية الطاعة لها ...

وما كان يمكن أن يهدد بعقوبة الموت ضد الخطية لو كان الاستخفاف بالوصية مستحيلا بالنسبة للإنسان فى حرية إرادته .

هكذا أيضا فى الوصايا الإلهية اللاحقة ، تجد أنه قد وضع أمام الإنسان الخير والشر ، الحياة والموت ، حتى انه وضع تأديبات معينة لمن يخالف الوصايا ، داعياً البشر أن يهربوا من الشر ، مهدداً ومحذراً إياهم ، وهذا ليس إلا لأن الإنسان حر ، له أن يطيع وبإرادته أن يقاوم .

العلامة ترتليان

† علاوة على هذا ، فإن الإنسان الذى له هذا البنيان ، يحميه صلاح الله وهدفه ، الأمران اللذان يوجدان فى إلهنا باتفاق . لأن هدفه ليس بغير صلاح ، ولا صلاحه بغير هدف ! ...

انه من اللائق أن ذاك الذى على صورة الله ومثاله ، أن تكون له حرية الإرادة والسيادة على نفسه ، بهما يحسب أنه على صورة الله ومثاله ...

ومن وجهة أخرى ... كيف لا يتحكم الإنسان فى نفسه ، ذاك الذى كان مالكا على العالم كله ؟ ! ... أالسيد على الآخرين (المخلوقات الأرضية) يكون عبداً ؟ !

إذاً يمكنك أن تتلمس صلاح الله من عطاياه التى أنعم بها على الإنسان ، ومن غرضه ، ومن إرادته فى كل شىء .

اذاً ليت صلاح الله وحده هو الذى يشغل إنتباهنا ، إذ وهب الإنسان عطية هذا قدرها ... حرية إرادته ! !

العلامة ترتليانه

† الله وحده صالح بطبيعته ، لأن ذاك الذى بلا بداية ، صلاحه ليس مخلوقاً ، بل بطبيعته . أما الإنسان (آدم) الذى وجد بكليته بالخلق ، فان له بداية . بهذه البداية ينال الشكل الذى هو عليه ، ينال طبيعته لا عن طبيعة (ذاتية من عندياته) بل نتيجة للخلق ... أى أخذها من خالقه الصالح ، الذى هو مصدر كل صلاح .

فلكى يكون للإنسان صلاح يلزم أن يهبه له خالقه ويصير ملكاً له . يصير له (صورة) الصلاح الطبيعى ... فيكون له بالصلاح الذى وهبه إياه الله حرية الإرادة وسلطاناً على ارادته ...

فالإنسان بحرية إرادته الكاملة يوهب له الإتجاهين :

(ا) إنه كسيد على نفسه يتقبل الصلاح دوماً ، بحرصه عليه ، وذلك بوازع من نفسه .

(ب) ويتنازل بدافع من نفسه عن الشر بتجنبه إياه ... فالمكافأة

عن الخير أو الشر لا يمكن أن تقدم الإنسان يوجد صالحاً أو شريراً عن ضرورة ، دون أن يكون له الخيار بين الإثنين ...

هكذا صلاح الله وهدفه ينكشفان فى عطية الله من جهة حرية الإنسان.

العلامة ترتليان

† لم تكن (الوصية) لمجرد أن يعيش الإنسان تلك الحيـــاة الطبيعية التى قدمها له الله ، بل لكى يحيا فى حياة الفضيلة أى فى علاقة مع الله ووصيته .

لذلك فقد وهبه أن يعيش عندما شكله فى نفس حية ؛ وأوصاه أن يعيش فى حياة الفضيلة عندما أمره بطاعة الوصية .

هكذا يظهر أن الله لم يخلق الإنسان لكى يموت ... إنما الإنسان هو الذى جبـــل لنفسه الموت ، ليس عن ضعف أو جهـــل لئلا يلام الخالق .

فالذى خدع الإنسان كان من قبل ملاكاً ، ولكن الانسان ضحية تلك الغواية كان حراً له السيادة على نفسه ، بكونه على صـــورة الله ومثاله ، فكان أقوى بكثير من أى ملاك ، كذلك بكونها نفخة من فم الله كان أعظم من الكيان الروحى الذى للملائكة ، إذ يقول « الصانع ملائكته رياحاً (أرواحاً) وخدامه ناراً ملتهبه » مز ١٠٤ : ٤ .

فلو كان الإنسان أضعف من الملائكة فى السلطان وأقل منهم ، ما كان قد جعل كل شىء خاضعاً له ، الأمر الذى لم يعطه للملائكة ، وما كان يضع عليه عبء الوصية ، لو لم يكن الإنسان قادراً على إحتمالها بدرجة عظيمة ، وما كان يهدد بعقوبة الموت لمخلوق يعرف الله أن لا ذنب له بسبب عجزه .

بالاختصار ، لو أن الله خلقه ضعيفاً ما كان قد أعطاه حرية واستقلالاً لإرادته بل بالحرى كان قد نزع عنه حقل هذه المواهب ...

العلامة ترتليان

† الله كصالح ومحب (جواد) وهب الإنسان حرية بخصوص الخير والشر ، واهباً إياه عقلاً به يقدر أن يعاين العالم وكل ما فيه ، فيعرف الله الذى خلق لأجله كل شىء .

أما الإنسان الشرير فإنه قد يرغب فى هذا (معرفة الله) ، لكنه لا يفهم بل يهلك بعدم إيمانه وبتفكيره المناقض للحقيقة .

هذه هى حرية الإنسان فيما يختص بالخير والشر !

القديس انطونيوس الكبير

† لا تستطيع قوة ما أن ترغمنا على صنع الخير أو الشر ، غير أن الذى

نعمل له بحرية إرادتنا ، ان كان الله أو الشيطان ، فذاك يحثنا إلى العمل الذى يخص علكته .

القديس مرقص الناسك

† لا تقل : إنى لا أعرف ماهو حق . فأنا لست مخطئاً فيما صنعت !! لأنك لو صنعت الخير الذى تعرفه ، فسينكشف لك الخير الذى لا تعرفه شيئاً فشيئاً . لأن الخير يكشف عن بعضه البعض .

إنه ليس من المفيد لك أن تعرف الخير التالى مالم تنفذ الأول ، لأن « العلم ينفخ » ، متى كان بدون عمل ، ولكن « المحبة تبنى » ، لأن « المحبة تحتمل كل شىء » ١ كو ٨ : ١ ، ١٣ : ٧ .

القديس مرقص الناسك

† † †

الوصية والأبوة

الله أب ، يود أن يتبنى الإنسان الترابي . والوصية الصادرة من إله كهذا ، إنما هي وصية حب تبني ولا تهدم ، دافعها الحب لا الإستعباد . إعلان الحرية لا الإذلال ... هي وصية أبويه ! ...

أما العقوبة الصارمة التي أعلنها كجزاء للعصيان ، فلم تكن للانتقام بل للكشف عن النتيجة الطبيعية لعمل يرتكبه الإنسان بيديه ...

فكما أن الأب يمنع طفله من لمس النار لئلا يحترق ، لا لأنه يريد حرقه ، بل لأن طبيعة النار محرقة . هكذا يحذر الله آدم من المعصية ، لأن المعصية أو الإنفصال عن طاعة الله بطبيعته يفقد الإنسان حياته ... فالتحذير والانذار هنا من قبيل الحنو والترفق لا الغضب (بمفهومنا البشري) والانتقام .

والعجيب في حديث الله لنا ، أنه لا ينسب النيران الأبدية إلينا بل يقول أنها « معدة لإبليس وجنوده » مت ٢٥ ، وكأنها لم تعد للبشرية . لكنه عندما يتحدث عن الملكوت السماوي ينسبه لنا أنه « معد لنا » .

فإن كان الله يسر بأن ندعوه « أبانا » ، إذ بالمعمودية صرنا أولاداً لله

والكنيسة ، فإن الوصية عندئذ تصير علامة عن تجاوبنا مع روح البنوة الذى نلناه ، الذى به نصرخ قائلين « يا أبا الآب » .

فتنفيذ الوصية هو من قبيل قبولنا روح البنوة وتجاوبنا معها ، لذلك يؤكد الرسول « والآن أيها الأولاد اثبتوا فيه ... إن علمتم أنه بار فاعلموا أن كل من يصنع البر مولود منه » ١ يو ٢ : ٢٨ ، ٢٩ .

« أنظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله ... كل من يثبت فيه لا يخطىء . كل من يخطىء لم يبصره ولا عـــرفه . أيها الأولاد لا يضلكم أحد . من يفعل البر فهو بار كما أن ذاك بار . من يفعل الخطية فهو من إبليس لأن ابليس من البدء يخطىء ... كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية لأن زرعه يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطىء لأنه مولود من الله . بهذا أولاد الله ظاهرون وأولاد إبليس . كل من لا يفعل البر فليس من الله ... » ١ يو ٣ : ١ — ١٠ .

وأما عمل الشيطان فهو تشويه مفهوم الوصيـــة من هذا الجانب ، بتشكيك الإنسان فى محبة الله وأبوته له ، بتشويه مفهوم الوصية ، إذ قال « أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ... لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخـــير والشـــر » تك ٣ : ١ — ٥ .

دخل الشيطان إلى قلبي آدم وعروسه بتشكيكهما فى أبوة الله لهما بتشويه دافع الوصية الإلهية ... لكنه فشل فى الدخول إلى قلب آدم الثانى عندما حاول تشكيكه قائلا « إن كنت ابن الله ... » ، وهكذا يعجز أيضا عن تشكيك عروسه الحقيق - الكنيسة جسد يسوع السرى - فى بنوتها للآب .

بين الأبوة والحرية

الوصية الصادرة من أب محب . . عملها إذابة ارادة الإنسان فى ارادة أبيه بمحض اختياره .

فالوصية فى نظر الإبن المطيع حرية ، أما فى نظر العاق فهى علامة عبودية .

فالإبن المطيع لايرى الحرية فى تخلصه من بيت أبيه كما ظن الإبن الشارد (لو ١٥) الذى رأى فى أبيه الإنسان القاسى الظالم ، يعطى الأجراء والعبيد أكثر مما للإبن ، إذ يحرمه من الأجرة ليتمتع مع أصدقاء السوء ، يأمر وينهى ، يحرمه من السهر ويرفض بياته خارجاً ليقضى لياليه مع الأشرار ...

الحرية فى نظر الإبن المطيع ليست التخلص من وصايا الآب ، بل قبولها برضى وحب ، حتى تصير ارادة الآب هى ارادة الإبن فى طاعته لأبيه . . وتصير الوصية موضوع لذة وسعادة !

هذا هو مفهوم حرية النفس التى لم يمكن يفهمها اليهود بسبب شرهم . فعندما قال لهم الرب « تعرفون الحق والحق يحرركم » . أجابوه اننا ذرية ابراهيم ولم نستعبد لأحد قط . كيف تقول أنت انكم تصيرون احراراً أجابهم يسوع الحق الحق أقول لكم أن كل من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة والعبد لا يبقى فى البيت الى الأبد . فإن حرركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً » يو ٨ : ٣٢ - ٣٦ .

† † †

† سبيلنا أن نخجل يا أحبائى ولتظهر سيرتنا فاضلة ... لأنه يكشف لنا عن المكتومات قائلا « لست اسميكم أيضا عبيداً لأنكم كلكم أحبائى ، لأننى أخبرتكم بكل ما سمعته من الآب » أى اننى منحتكم الدالة ...

تفطن فى الأمر ، كيف أنها علاقة محبة ؟

لنخجل إذاً من هذا ، وان كان لم يحدثنا بأقوال مثل هذه عن جهنم ، فإن خيانتنا له وعدم وفائنا لمحبته واحسانه أرعب من جهنم ، ليس كعبيد مستأجرين بل كأبناء أحرار ، عاملين كل شىء لأجل محبة الآب ...

يوحنا ذهبى الفم

† إعلموا أن من يخشى الله ويحفظ وصاياه فهو عبد لله . وليست هذه

عبودية بل حرية . إنها تحرر من الرق ووصول الى أرث الإبن .

من أجل هذا إختار ربنا الأنبياء والرسل وائتمنهم على البشرى الرسولية. وصاروا مربوطين بيسوع المسيح كما شهد بولس الرســـول عن ذاته قائلا « إنى أسير يسوع المسيح المدعو رسولا » . .

إذا إقتربنا من النعمـــة ، عندئذ يقول لنا ربنا يسوع المسيح كما قال لتلاميذه : لست أدعوكم الآن عبيداً بل أحباء وإخوتى . لأنى كلما سمعته من أبى أعلمكم به . فالذين يعيشون فى النعمة يعـــرفون بالروح القدس لذة تقيدهم بالله . فيصرخون قائلين اننا لم نقبل روح العبودية فنخاف ، بل روح البنوة الذى به ندعو الآب أبانا . وان كنا بنين فنحن ورثة الله وشركاء ميراث القديسين .

انطونيوس الكبير

† ان الذى يخضع إرادته لإرادة الله خضوعاً هذا مقـــداره ، حتى انه لايعرف أن يريد إلا ما يريده الله ، ولا يأبى إلا ما يأباه الله ، فهو دائماً يعمل بإرادته الذاتية (لأنها تطابق إرادة الله) ، ويتمتع بهدوء وراحة عظيمة مستمرة .

† أنظر يا إبنى ولا تحمل نفسك هماً . لأنك إن أردت أن تعمـل (فى الرهبنة) دائماً ما تريده ، فإننى أعـــرفك طريقاً به تستطيع أن تعمل.

بإرادتك على الدوام ، ليس بطريقة مباحة وخالية من الإثم فحسب بل فيها قداسة وكمالا .

أتريد أن تعلم كيف يكون هذا ؟ إعلم أن الذى ليس له إرادة ذاتية ، هو يعمل إرادته الذاتية . فالانسان (الراهب) الذى يخضع عقله للطاعة بالكلية ، ويجرد نفسه من ارادته ، لايعمل شيئاً يضاد ارادته ، لأنه جعل ارادة الخير مكان ارادته .

القديس دوروثيؤس

† لايوجد أحد قد أحسن تدبير أفعاله كمن إستعد قلبه لترك الشيء الذى تنهى عنه القدرة الإلهية ، أكثر من استعداده أن يقوم بعمل ما يحث عليه قياس عقله البشرى .

اغسطينوس

† إلهى ... إن الذى لا يشتهى أن تأمره بما يريده هو ، انما يريد هو ما تريده أنت فقط . فهذا عبد لك صالح .

اغسطينوس

† لا تطلب من الله أن يعمل ما تريده أنت ، بل أطلب — كما تعلمت — أن تتمم مشيئته فيك .

† ان كان سرورنا فى تنفيذ إرادة الله أقل من سرورنا فى تنفيذ ارادتنا ،

فإنه يلزمنا أن نطلب من الله لا أن تتم ارادتنا ، لأنها ربما تضرنا ، بل أن يصيرنا بنعمته أن نطابق ارادته بسرور . هذه التي من شأنها أن تجنى لنا خيراً ونفعاً على الدوام .

فبني اسرائيل (الأشرار) الذين كرهوا المن السماوى واشتهوا اللحم وطلبوه ، أعطاهم الرب شهوتهم ، غير أن ذلك صار بالنسبة لهم شراً وضرراً .

اغسطينوس

† « لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض » .

كما تعمل مشيئتك فى الملائكة سكان السماء ، حتى أنهم ملتصقون بك تماماً ، ومتمتعون بك كلية ، ولا تشوب حكمتهم خطأ ، ولا يمس سعادتهم شقاء ، هكذا لتكن ارادتك فى قديسيك قاطنى الأرض ... فعندما تسير ارادتنا حسب ارادة الله ، حينئذ تكمل ارادته فينا كما هى كاملة فى الملائكة السمائيين . وعندئذ لا توجد مقاومة فى طريق سعادتنا . وهذا هو السلام .

اغسطينوس

† † †

سلمه ارادتك فيهبك ارادته[1]

قيل عن احدى الفاضـــلات أن كل من كان يسألها لتصلى له يستجاب طلبه ، رغم نسيانها الكثير من الأمور فى الصـــلاة ، وكان النـاس يشكرونها ... أما هى فوقفت فى محبة تعاتب الله ، أن النـاس يشكرونها عن أمر ليست لها فضل فيه ، بل تنسى حتى الصلاة من أجله . وقد قيل أن الرب ظهر لها قائلا « إعلمى يا إبنتى أنه منذ سلمتى إرادتك لى ، فأنا أيضا سلمتك ارادتى . ومن ثم وإن كنت لم تطلبى شيئا على وجه الخصوص لكننى أصنع هذه الأمور حسب ارادتك إذ أعرف رغبة قلبك» .

† † †

---

(١) عن الكمال المسيحى .

الفصل الرابع

الحب الإلهي وسقوط الإنسان

† لماذا لم يستعبد الله المحب الشيطان ؟ !

† من يقدر أن يؤذى الإنسان ؟ !

† الله والنفس البشرية.

لماذا لم يستعبد الإله المحب الشيطان ؟!

الله حب ، وفى حبه لم يبخل على آدم فى شىء ، بل قدم له كل إمكانية تعمل لسعادته ، حتى يحيا فى ملء السلام ، مغموراً بالحب الإلهى من كل جانب .

لكن السؤال الذى يراود الكثيرون : لماذا سمح الله للشيطان ـ العدو المخادع ـ ان يجرب آدم ويمتحنه ؟ !

والسؤال التالى يتبع الأول : ولماذا لا يزال يسمح للشيطان المجرب ، والعالم بمغرياته وآلامه ، وللجسد بشهواته ورغباته أن تحـــارب النفس البشرية ؟ !

أود أن أقول أن السماح للشيطان أن يجرب آدم وحواء هو فى الحقيقة لمسة من لمسات حب الله لهم ، هو من قبيل عشق الله بهما . فبوجود هذه الحرب يعلن الله سلطان الإنسان وتقدير الله للإنسان ، إذ وهب حرية الإرادة .

فلو أن الله قدم لنا كل حب ووهبنا كل ما نحتاج إليه ، وتركنا ننعم فى الفردوس بغير مجرب ، لكنا أشبه بقطع الشطرنج التى يحركها اللاعب

فلا تشعر بانجذاب أو بغضة ... إنما هى آلات صماء مطيعة بلا أحاسيس ولا مشاعر ... وعندئذ تصير الحياة بلا طعم والفردوس بلا جمال ... لعجزهما فى تقديم ما يمكن للانسان أن يشارك الله فى حب متبادل بإرادة حرة ...

† † †

† لقد قدم الله فرصة للصراع ، حيث كان يمكن للانسان أن يحطم عدوه (الشيطان) بنفس الحرية التى بها إستسلم له ...

وهكذا أيضا يصير الإنسان مستحقاً لنوال خلاصه بالنصرة (بنعمة الرب) ويصير فى نفس الوقت للشيطان عقوبة أشد بالرغم من نوال الإنسان نصرة بذاك الذى سبق فأضره (أى بغلبته على الشيطان) وفى نفس الوقت يظهر صلاح الله بصورة أعظم ، حيث ينتقل الإنسان بعد حياته الحالية إلى فردوس مجيد ، مع حقه فى جنى شجرة الحياة .

العلامة ترتليان

هل يقدر الشيطان أن يؤذيك ؟!

† قد يقول قائل : ألم يؤذى الشيطان آدم ، إذ أفسد كيانه وأفقده الفردوس ؟

لا ، إنما السبب فى هذا يكمن فى إهمال آدم الذى أصابه الضرر ، وعدم ضبطه لنفسه ، وعدم جهاده .

فالشيطان الذى إستخدم مكائداً قوية كثيرة ضد أيوب لم يقـــدر أن يخضعه ، فكيف أمكنه بوسيلة أقل أن يسيطر على آدم ، لو لم يغـــدر آدم بنفسه على نفسه ؟ !

يوحنا ذهبي الفم

✝ لقد قلنا قبلا أن الشيطان لا يهزمنا بالقوة أو بسلطان أو بالعنف ، وإلا لدمرت البشرية كلها . وقد أثبتنا هـــذا من حادثة الخنـــازير (مت ٨ : ٣١) ، إذ لم تستطع الشياطين أن تدخل فيهـا إلا بعـــد إستئذان السيد .

لماذا لا يستبعد الله المحب الشيطان ؟ (١)

والآن بقى لنا سؤال واحــــد ... إذاً قد يقول قائل : إن كان الشيطان لا يتغلب علينا جبراً بل بالمكر والخداع ، أما كان من الأفضل أن يهلك ؟ فإن كان أيوب قد هزم قوة إبليس إلا أن آدم خدع وطرد خارجاً . فلو أن إبليس قد طرح خارجاً واستقصى بعيداً عن العالم لما سقط آدم وطرد ؟ ... لكن ابليس باق الآن وان كان يغلبه واحد إلا أنه هو يغلب كثيرين .

يصرعه عشرة ، أما هو فيصرع عشرة آلاف .

(١) الأقوال التالية جميعها للقديس يوحنا ذهبي الفم ، فيما عـدا التبويب والعناوين ، وهى مأخوذة عن كتاب « هل للشيطان سلطان عليك ؟ »

فلو أن الله طرحه خارجاً عن العالم ، لما هلك هؤلاء العشرة آلاف ..

ماذا تقول عن هذا ؟ ! !

١ – كرامة الغالبين أعظم من خزى المغلوبين :

أولا نقول أن الذين غلبوا إبليس لهم كرامة أفضل بكثير من أولئك المغلوبين حتى ولو كان عدد المغلوبين كبيراً والأوائل قليلين ، إذ يقول « (ولد) واحد يتقى الرب خير من ألف منافقين » ابن سيراخ ١٦ : ٣ .

٢ – أذى المغلوبين كسلهم وليس الشيطان :

ثانياً : لو استبعد الشيطان من العالم ، فان المنتصرين تجرح كرامتهم . لكن لو ترك الشيطان يحارب ، فإن الكسالى وذوى البطر لايتأذون على حساب المتيقظين إنما يتأذون بسبب بطرهم وكسلهم ، بينما لو استبعد الشيطان من العالم ، فإن المتيقظين يغبنون على حساب المتهاونين حيث لا تظهر قوتهم ويحرمون من الإكليل .

لعلكم لم تفهموا بعد ما قلته ، لهذا يلزمنى أن أكرر القول موضحاً :-

لنفرض أن عدواً يصارع أثنين فى حلبة المصارعة ، وواحد منهما أنهكه النهم وعدم الاستعداد مما جعل قوته تخور ويفقد أعصابه ، أما الآخر فقد كان يقظاً له عادات حسنة يقضى زمانه فى التدرب على تداريب كثيرة فى

مدرسة المصارعة . فلو سحب العدو من وسط الحلبة ، من من الإثنين يصيبه الأذى ؟ من يكون ضحية ؟ الإنسان المتكاسل غير المستعد ، أم الغيور المجاهد كثيراً ؟! من الواضح أن هذا الأمر يؤذى الغيور المجاهد ويضايقه . لأن المجاهد يغبن بانسحاب العدو ، أما المتكاسل فلا يصيبه أذى لأن سقوطه سببه تكاسله .

٣ ـ تهاون الإنسان جعل الشيطان يدعى « مضللا »

وهنا أيضا اتعرض لتوضيح آخر حتى نتعلم أن التراخى والكسل هو الذى يصرع غير المتنبهين وليس إبليس ... إنما هو يسمح لإبليس لكى يفرط فى الشر ، ليس (كأمر طبيعى (١)) بل حسب الإختيار (أى قبولنا شره) فإبليس ليس طبيعياً (إلزاميا) مضر ، إنما كما هو واضح من أسمائه ، أنه مجرد « مضلل » .

لقد أساء سمعة الإنسان أمام الله قائلا « هل مجاناً يتقى أيوب الله ... ولكن أبسط يدك الآن ومس كل ما له فإنه فى وجهك يجدف عليك » أى ١ : ٩ — ١١ . ولقد ضلل إبليس أيضا عندما قال « نار الله سقطت من السماء فاحرقت الغنم » أى ١ : ١٦ . انه كان يحاول اقناع أيوب بأن

---

(١) فى النص الانجليزى « بطبيعته » ، وربما يقصد كأمر إلزامى طبيعى ، أو يقصد أن الشيطان أصلا ليس طبيعته الشر لأنه كان قبلا ملاكاً .

هـذه المصائب نازلة عليه من السماء من فوق ، واضعاً العثرات بين السيد الرب وعبده . وهكذا حاول إبليس لكنه فشل !!

انه فى نجاح محاولته مع آدم ، وتصديق آدم لتضليله ينبغى ألا يفهم، أن انتصار إبليس وقوته يعود الى طبيعته بل لكسل الإنسان واهماله ، لهذا دعى إبليس.

أن التضليل وعدمه ليس أمر طبيعى بل قد يحدث أو لا يتم حدوثه ، دون أن يصل الأمر الى درجة « الطبيعية » .

أن موضوع الأمور الطبيعية والأمور العارضة ، موضوع يصعب على الكثيرين فهمه ، ولكن هناك من ينصت الينا بفهم . الى هؤلاء نتحدث .

اننا نعرف بأنه ليس اسم من اسمائه أطلق عليه بالطبيعة . فقد دعى « الشرير » ، لكن شره ليس أمر طبيعى بل باختياره . لم يكن منذ البداية هكذا ، بل جلب الشر لنفسه . كذلك دعى أيضاً « الجاحد » ، ...

٤ — هل نستبعد الخليقة الجميلة أيضاً ؟

لنترك الحديث عن إبليس الآن وننظر الى الخليقة ، حتى نعلم أن إبليس ليس هو السبب فى آلامنا لو أخذنا حذرنا منه ، وحتى نعرف أن ضعيفى الإرادة وغير المستعدين والكسالى يسقطون حتى ولو لم يوجد إبليس ويسقطون بأنفسهم فى أعماق الشر ...

الكل يعرف - كما قلت - أن إبليس شرير ، ولكن ماذا تقول عن الخليقة الجميلة والعجيبة ؟ !

هل الخليقة شريرة أيضاً ؟

من هو هذا الشرير والغبي حتى يحرق ويدين الخليقة ؟!

أن الخليقة جميلة ، وهى علامة حب الله وحكمته وقوته . لنستمع الى النبي الذى يتعجب قائلا « ما أعظم أعمالك يا رب . كلها بحكمة صنعت » مز ١٠٤ : ٢٤ . وقد مر النبي على الخليقة واحدة تلو الواحدة فى دهشة ، ولكن أمام حكمة الله غير المنظورة تراجع قائلا « فانه بعظم جمال المبروءات يبصر ناظرها على طريق المقايسة » حك ١٣ : ٥ . ولنستمع الى بولس الذى يقول « لأن أموره غير المنظورة ترى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية » رو ١ : ٢٠ . فكل شيء من أمور هذه الخليقة - كما يقول الرسول - تقودنا الى معرفة الله .

والآن إن رأينا نفس هذه الخليقة الجميلة والعجيبة تصير سبباً لشر الإنسان فهل نلومها إذاً ؟ ! حاشا . بل نلوم أولئك الذين لم يستطيعوا استخدام الدواء استخداماً صائباً .

إذاً متى تصبح الأمور التى تقودنا الى معرفة الله علة شرنا ؟ يقول الرسول ، ان الحكماء « حمقوا فى أفكارهم ... وعبدوا المخلوق دون

الخالق » رو ١ : ٢١ - ٢٥ . لم يأت ذكر إبليس هنا ، بل وضعت أمامنا الخليقة كعلة لنا عن حكمة الله ، فكيف صارت علة شر ؟ ! هذا طبعاً لايرجع الى طبيعتها بل الى اهمال الذين لايحترسون لأنفسهم . لأنه ماذا يقول ؟ هل ننزع الخليقة أيضاً ؟ !

٥ - وهل نستبعد أعضاءك أيضا ؟

لنترك الخليقة ونأتي الى أعضائنا ، ففي هذه نجدها سبباً في هلاكنا ، إذا لم نأخذ حذرنا . وهذا ليس عن طبيعة الأعضاء بل بسبب تراخينا أيضاً .

لقد وهبنا عيونا نعاين بها الخليقة فنمجد السيد الرب . ولكن متى أسأنا استخدامها تصير خادمة للزنا .

وقد أعطينا اللسان لنعلم حسناً ، ونسبح الخالق ، فاذا لم نحترز لأنفسنا يصير علة تجديف .

وأخذنا الأيدى لنرفعها فى الصلوات ، ولكننا إذ لم ننتبه نجدهما يعملان فى الطمع والجشع .

ووهبنا الأقدام لنسير فى الصلاح ، وباهمالنا تتسبب فى أعمال شريرة .

ان كل الأشياء تؤذى الإنسان الضعيف ، حتى أدوية الخلاص

(بالنسبة للرافضين إياها) تسبب الموت ... لا بسبب طبيعة الدواء بل بسبب الضعف .

الله خالق السموات لنعجب من أعماله ونعبد الرب ، لكن آخرون تركوا الخالق وعبدوا السماء ، وعلة هذا إهمالهم وجهودهم .

٦ – حتى الصليب عند الهالكين جهالة

بالتأكيد لا يوجد شيء يؤدى بنا الى الخلاص أكثر من الصليب . لكن هذا الصليب صار جهالة للهالكين ، لأن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة ، أما عندنا نحن المخلصين فهى قوة الله » ١ كو ١ : ١٨ . ويقول أيضاً ولكننا نحن نكرز بالمسيح مصلوباً لليهود عثرة ولليونانيين جهالة » ١ كو ١ : ٢٣ .

٧ – والرسل صاروا رائحة موت لكثيرين

من يقدر أن يعلم أفضل من بولس والرسل ؟ ! لكنهم صاروا رائحة موت لكثيرين . إذ يقول الرسول بولس « هؤلاء رائحة موت لموت ولأولئك رائحة حياة لحياة » ٢ كو ٢ : ١٦ .

أن الضعيف (الرافض) يؤذيه حتى الرسول بولس ، وأما القوى لا يقدر أن يؤذيه حتى ابليس ؟ !

٨ — وفى المسيح عثر كثيرون

لننتقل بحديثنا إلى يسوع المسيح نفسه .

من يقدر أن يقيم خلاصه ؟ ! ما أكثر النفع الذى جنيناه من حضوره معنا ! ! لكن هذا المجيء المبارك بعينه صار علة دينونة لكثيرين « فقال يسوع لدينونه أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون » يو ٩ : ٣٩ .

ماذا نقول يا اخوتى : هل يصير النور سبباً فى العمى ؟ ! ! ليس النور بل الشر الذى ملأ عيون النفس لحجب عنها معاينة النور .

وهكذا نرى الضعيف (المصر على شره) يؤذيه كل شيء ، أما القوى فينتفع من كل أمر .

٩ — إستفد من إبليس

حتى إبليس يمكن أن يكون سبب نفع لنا إن فهمناه ... وهذا واضح فى حالة أيوب . ويمكن أن نتعلم هذا أيضاً من بولس إذ يكتب بخصوص الزانى قائلا « أن يسلم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكى يخلص الروح » ١ كو ٥ : ٥ . أنظروا حتى الشيطان قد صار سبب خلاص ، لا بطبيعته ولكن بمهارة الرسول كالطبيب الذى يحضر حية ويستخرج منها دواء .

فلنتعلم أيضاً أن إبليس ليس هو علة خلاص ، لكن قدماه تسرعان نحو هلاك الجنس البشرى ... إذ يقول الرسول فى رسالته الثانية لأهل كورنثوس عن الزانى عينه « أطلب أن تمكنوا له المحبة ... لئلا يطمع فينا الشيطان لأننا لا نجهل أفكاره » ٢ كو ٢ : ٨ - ١١ ...

وهنا يعتبر الرسول بولس الشيطان كمنفذ لأحكام الله ... إذ قال الله للشيطان بخصوص أيوب « ها هو فى يدك ، ولكن احفظ نفسه » أى ٢ : ٥ ، ٦ .

هكذا أعطى الرب حدوداً لإبليس لا يتعداها ، حتى لا يبتلعه بغير حياء .

لذلك لا نخاف الشيطان حتى ولو كان روحاً بغير جسد . فليس شيء أضعف منه ذاك الذى جاء بطريقة ما ولو كان غير جسدى ، ولا شيء أقوى من الشجاع ولو كان يحمل جسداً قابلا للموت !!

يوحنا ذهبي الفم

لست أبرئ الشيطان

لم أنطق بهذه الأمور لأبرىء الشيطان من الذنب ، لكن لكى احذركم من الكسل . فإن رغبة الشيطان أن نلقى باللوم عليه فى أخطائنا .. وبهذا نغرق فى كل صنوف الشر ونزيد على أنفسنا العقوبة ولا ننال العفو ، إذ ننسب العلة اليه (بغير توبة منا) .

حواء لم تنل شيئاً (من العفو) ، ليتنا نحن لا نصنع ما فعلته بل لنعرف أنفسنا ، ولنعرف جراحاتنا ، وعندئذ يمكننا أن نستخدم الأدوية . لأن من يعرف مرضه لا يبالي بضعفه .

اننا نخطيء كثيراً . هذا أعرفه جيداً . لأننا جميعاً مستحقون العقوبة لكننا لا نحرم من العفو ، ولا نستبعد عن التوبة ، إذ لا نزال قائمين كمن في مسرح المصارعة وفي صراع للتوبة .

يوحنا ذهبي الفم

لماذا لم يخدعكم الشيطان ؟

لقد بدأنا أول أمس في الوعظ بخصوص « الشيطان » ... وبينما كنا نشرع في الوعظ ، ذهب البعض إلى المسارح يشاهدون عروض الشيطان . لقد كانت لهم شـــركة في الأغاني الخليعة ، أما انتم فكنتم تشتركون في الموسيقى الروحية . كانوا يأكلون من نفايات الشيطان ، أما أنتم فكنتم تتغذون بدسم روحي .

أسألكم من الذي خدعهم ؟ من الذي فصلهم عن القطيع المقدس ؟ هل الشيطان هو الذي خدعهم ؟ ! فلماذا لم يخدعكم أنتم ؟! مع انكم واياهم بشر متشابهون ، أقصد لكم طبيعة واحدة ... لكم نفس (روح) مشابهة ، وغرائز (ميول) واحدة بقدر ما خصتكم بذلك الطبيعة ...

إذاً كيف لم يكن الكل في مكان واحد ، إلا بسبب اختلاف الهدف لهذا السبب بحق هم صاروا تحت الخداع ، وأما أنتم ففوقه .

لست أقول هذا لكي أبرىء الشيطان من الإتهام ، بل اشتاق بغيرة أن تتحرروا من الخطايا .

فالشيطان شرير . وأنا أسلم بهذا . لكنه شرير بالنسبة لذاته وليس بالنسبة لنا ما دمنا حذرين . لأن هكذا هي طبيعة الشر . أنها مهلكة للذين يتمسكون بها وحدهم ...

إبكوهم بالقدوة الحسنة :

لهذا هل تستخدم هذه الوسيلة للبرهان ، فان رأيت إنساناً يعيش في شر ويظهر كل صنوف الآثام ، ملقياً باللوم على العناية الإلهية ، قائلا بأن هذا مصادفة بحكم القضاء والقدر أو بسبب إستبداد الشياطين ، وأن الله وهبنا هذه الطبيعة . . . وكل الأمور التي ينزع بها اللوم عن ذاته ليلقي بها على الخالق المعتنى بالكل ؛ عندئذ أبكم فمه لا بالكلام بل بالعمل ، مظهراً للعبد رفيقك الحياة في الفضيلة والاحتمال .

إنه لا حاجة للأحاديث الطويلة أو عمل خطة معقدة ، ولا حتى إلى قياسات منطقية ، بل بالأعمال يتحقق البرهان .

قد تقول انك عبد ، وهو عبد مثلك . أنت انسان ، وهو أيضاً انسان . انك تعيش في نفس العالم ، وتتنعم بنفس الأمور التي هي تحت السماء ، فكيف تعيش أنت في الشر وأما هو فيحيا في الفضيلة ؟ !

يوحنا ذهبي الفم

من يقدر أن يؤذى الإنسان ؟!

عزيزى . . .

إنك لست بالمخلوق الهين . . . لست لعبة فى يد الأقدار ، ولا غنيمة فى يد الشيطان ... ولكن يلزمك أن تعرف نفسك . إنك المخلوق الإلهى الذى وهبك الله سلطاناً على نفسك وحرية لإرادتك ، فلا يستطيع شيطاناً ولا خليقة ما ولا سيفاً ولا فقراً ولا قوة ما أن تؤذيك ما لم تؤذ نفسك بنفسك !

وهبك الله أن تسعد نفسك أو تشقيها إن بقيت فى هدفك أو إنحرفت عنه . . .

فإن بقى هدفك هو إرتباطك بالله ، فإن كل الأمور تعمل معاً نحو سعادتك ... الشيطان يحاربك ، لكنك بنعمة الرب يسوع تنال النصرة ، فتكلل بالأكثر ، وتزداد ديئونته هو .

الضيق يحاصرك ، فتشعر بالشركة مع الرب المتألم !

الأفراح تتعقبك ، فتشكر وتمجد واهب العطايا !

هكذا كل الظروف تعمل معاً لخيرك ما دام هدفك ثابتاً . أما متى إنحرف الهدف فإنه حتى الكتاب المقدس يصير عثرة لك .

المسيح يعلن لك ذاته ، فتصير دينونتك أقسى .

والبركات تغمرك فتلهى بالبركة دون واهبهـا . والأحزان تباغتك فتتضايق وتتبرم متذمراً !

عزيزى . . . إنك بلا عذر ، لأن الله وهبك سلطاناً وقدم لك كل إمكانية تعمل لخيرك إن أردت . وقد سجل لنا ذهبي الفم إحدى مقالاته عن « لا يقدر أحد أن يؤذى إنساناً ما لم يؤذ هذا الإنسان نفسه » كما سجل ثلاثة مقالات عن « سلطان الشيطان على الإنسان » وقد سبق لى ترجمة هذه المقالات فى كتيبين سبق طبعهما (١) ، لذلك آثرت الاكتفاء بذكر بعض المقتطفات منهما منعاً من الإطالة .

† † †

انحراف الهدف يؤذى الإنسان

١ ـ الاختلاف بين الخراف والجداء :

† مخيف هو كرسى القضاء ، ومرعب بالنسبة للخطاة والذين هم تحت

(١) الكتيب الأول «من يقدر أن يؤذيك ؟» طبع سنة ١٩٦٥ ، والثانى « هل للشيطان سلطان عليك » سنة ١٩٦٦ م

الدينونة . أما بالنسبة المتيقظين لأنفسهم بالأعمال الصالحة ، فإن كرسى الحكم موضع شوقهم ويكون رقيقاً بالنسبة لهم .

« فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار » مت ٢٥ : ٣٣ . كلاهما بشر . فبالحقيقة لماذا هؤلاء خراف وأولئك جداء ؟! لا لكى نتعلم وجود فارق فى طبيعتهم ، بل بسبب إختلاف الهدف .

ولكن لماذا يحسب الذين لا يظهروا حنواً جداء ؟ لأن هذا الحيوان بالنسبة لأصحابه غير مثمر ، لايساهم بنصيب لا من جهة إنتاج اللبن أو إنجاب نسل أو من جهة الشعر (الصوف) .. فإذ ليس لهم ثمر قارنهم بالجداء . أما الذين عن اليمين فدعاهم « خراف » ، لأن هؤلاء تقدمتهم عظيمة ، من صوف طبيعى وإنجاب نسل وانتاج لبن . ماذا يقول لهم « لأنى جعت فأطعمتمونى ، عطشت فسقيتمونى . كنت غريبـــاً فآويتمونى » . مرة أخرى قال للآخرين العكس .

مع هذا فإن كلا الفريقين أناس متشابهون (كبشر) ، وكلاهما نال نفس المواعيد ، ووضعت المكافأة للجميع ليصنعوا خـــيراً . وقد جاء نفس الشخص (الفقـــير) لهؤلاء وأولئك ، بنفس العرى ، ونجاهم الجائع والغريب ذاته ... إن كل الأمور مشابهة بالنسبة لهؤلاء أو أولئك . فلماذا لم تكن النهاية واحدة ؟

لأن الهدف (ليس واحـد) ...

على هذا الأساس فريق يذهب إلى جهنم والآخر إلى الملكوت . فلو كان الشيطان هو السبب فى إرتكاب الخطايا ، لما عين لهؤلاء العقوبة بينما (الشيطان) هو المخطىء والذى دفعهم (جبراً) نحو الخطية ...

يوحنا ذهبى الفم

٢ ـ الاختلاف بين العذارى الحكيمات والجاهلات

† يقول بأن هناك عشرة عذارى (مت ٢٥) . هنا أيضاً توجـد أهداف مستقيمة وأخرى خاطئة ، كلاهما بجوار بعضهما جنباً إلى جنب خطايا البعض والأعمال الصالحة للآخرين ...

هؤلاء وأولئك كانوا عذارى ..

هؤلاء خمس عذارى وأولئك خمس مثلهم .

الكل ينتظر العريس .

لماذا دخل البعض (العرس) والآخرون لم يدخلوا . إلا لأن البعض كانوا بخلاء (غير محبين) والآخرون نبلاء ومحبين .

ألا ترى أن الهدف وليس الشيطان هو الذى قرر مصيرهم .

هل ترى أن (الظروف) كانت مشابهة وأن القرار نتج عن أولئك المشابهين لبعضهم البعض . هوذا يدين العبيد العبيد رفقاءهم .

يوحنا ذهبى الفم

† † †

١ - هل الظلم يؤذيك ؟

† ماذا إذن ؟ ! أما يصيب الأذى من يتعرض للظلم (من الغير) ويقاسى من نهب الأموال ، فيحرم من خيراته ويطرد من ميراثه ويناضل فى فقر فادح ؟ !

لا ، بل ينتفع من ذلك إن كان عاقلا . لأنه هل أضرت هذه الأمور الرسل ؟ ! ألم يجاهدوا فى جوع وعطش وعرى ؟ ! وبسبب هذه الأمور صاروا مشهورين وممجدين وربحوا لأنفسهم معونة أكثر من الرب .

يوحنا ذهبى الفم

لماذا يعاقب الله مدبرى الشر ؟

† قد يقال : إذن ما هو هدف التأديبات والعقوبات ؟ ولماذا وجد الجحيم ؟ وما فائدة التهديدات الكثيرة : مادام لا يضر أحد غيره ولا يصيبه ضرر من غيره ؟ ...

انى لم أقل أنه لا يضر أحــــد غيره ، بل لا أحد يصيبه ضرراً من غيره . وكيف لا أحـــد يصيبه ضرراً من غيره مادام كثيرون يضرون غـــيرهم ؟ ! ...

إخوة يوسف مثلا أضـــروا يوسف ، لـكن يوسف نفسه لم يصبه الضـــرر .

وقايين ألقى بشباكه لهابيـــل ، لـكن هابيل لم يسقط فيها وهذا هو السبب الذى لأجله وجدت التأديبات والعقوبات .

فالله لا يرفع العقوبة عن مدبر الضرر لمجرد صلاح محتمل الضـــرر ، بل يؤكد عقوبته بسبب شـــر صانع الإثم . فإنه بالرغم من أن الذين يسقط عليهم الشـــر ، يصيرون أكثر مجداً على حساب المـكائد المدبرة ضدهم ، لـكن هذا لم يـكن فى نية مدبرى الشر ، إنما بسبب شجاعة من هم ضحيتهم . لذلك فإن الأخـيرين تعد لهم أكاليل الحـكمة ، أما الأولون فتعد لهم جزاءات شرورهم .

هل سلبت أموالك ؟ أذكر تلك الـكلمات « عرياناً خرجت من بطن أمى وعرياناً أعود إلى هناك » أى ١ : ٢١ . وأضف إليها كلمات الرسول « لأننا لم ندخل العالم بشىء وواضح اننا لا نقدر أن نخـــرج منه بشىء » ١ تى ٦ : ٧ .

هل أسيء إلى سمعتك ، وحلك البعض بشتائم لا حصر لها ؟ أذكر العبارة القائلة « ويل لكم إذا قال فيكم جميع النــــاس حسناً » لو ٦ : ٢٦ . وأيضاً إن « قالوا عليكم كلمة شريرة ... افرحوا وتهللوا » مت ٥ : ١١ .

هل أخذت إلى المنفى ؟ أذكر أنه ليس لك هنا موضع بل إن كنت حكيماً يلزمك أن تنظر إلى العالم كله كأرض غربة .

هل أصبت بمرض خطير ؟ إقتبس ما يقوله الرسول « إن كان إنساننا الخارج يفنى فالداخل يتجدد يوما فيوماً » ٢ كو ٤ : ١٦ .

هل يعانى إنسان من موت عنيف ؟ ليذكر يوحنا الذى قطعت رأسه فى السجن وأخذت فى طبق وقدمت مكافأة عن رقص زانية .

تأمل المكافأة التى تنالها على حساب هذه الأشياء ، فإن كل هذه الآلام عندما تسقط ظلماً من انسان على آخر تنزع خطايانا وشرنا (إذ نتقبل الظلم بلا تذمر مؤمنين بالله مترجين الحياة الأخرى ، فتعمل هذه الأمور على تزكيتنا) . إذن عظيم هو نفع هذه الأتعـــاب بالنسبة للذين يحتملونها بشجاعة ! !

يوحنا ذهبي الفم

† † †

الأذى يصيب الظالم لا المظلوم !!

* ان كان لا فقدان المال أو الافتراءات أو السب أو السبي أو الأمراض أو الإضطهادات بل ولا الموت الذى هو أفظع من هذا كله ، يقدر أن يضر من يتعذبون به ، بل بالحرى يزداد نفعهم » فكيف تقدر أن تثبت لى أن الإنسان لا يصيبه أذى متى حل به شيء من هذا ؟!

انى سأجتهد أن أثبت أكثر من هذا ، أن الذين يصيبهم الأذى ويتألمون من الشر ، هم أولئك الذين يصبون شرورهم على غيرهم . فانه لا يوجد إنسان أكثر بؤساً من قايين الذى صنع هكذا بأخيه (قتله) ؟!

وما أكثر شقاء تلك الإمرأة التى لفيليب ، حيث قطعت رأس يوحنا ؟ وما أعظم شقاء إخوة يوسف الذين باعوه للغرباء وأرسلوه إلى أرض غريبة ؟! وشقاء الشيطان الذى ضايق أيوب بهذه النكبات العظيمة ؟! لأنه لا يدفع حساباً عنيفاً عن شـــروره فحسب بل وبسبب ما فعله بأيوب أيضاً .

أترون كيف جاءت الأدلة أكثر مما نتوقع ، إذ ظهـــر أن الساقطين تحت الظلم لا تصيبهم جراحات ، إنما يرجع الأذى على رأس مدبرى المكائد !!!

فاذ لا يقوم صلاح النفس على الغنى أو الحرية (الجسدية) أو عدم النفى

وغير ذلك من الأمور التى أشرت اليها ، بل على أفعال النفس ، لذلك فان أى ضرر يصيب هذه الأمور لن يلمس الصلاح البشرى بأدنى أذى .

ماذا إذن ؟ لنفرض أن انساناً يسىء إلى حياته الروحية ، ثم يسىء إنسان إليه بضرر ما ، فان الأذى لا يأتيه من الغير ، إنما يكون نابعاً من داخل نفسه ، من الإنسان ذاته . ربما تتساءل : كيف ذلك .

عندما يضرب إنسان آخر ، أو يسلب ماله ، أو يقذفه بشتائم قاسية أو يسبه . فان الإنسان الثانى يحتمل بالتأكيد ضرراً بل وضرر كثير ، لكن الأذى لا ينبع عمن أساء اليه بل من نفسه المتعبة . لأن ما سبق أن قلته أعود فأكرره أنه لا يوجد انسان مهما بلغ شره أن يهاجم آخر بشر أو عنف أشد من ذلك الشيطان الحاقد ، العدو غير المشفق علينا ، لكن حتى هذا الشيطان المتوحش لم يكن له سلطان أن يفسد ذلك الإنسان (أيوب) الذى عاش قبل الناموس وقبل عهد النعمة ، رغم استخدامه أسلحة كثيرة حادة من كل جانب . هذه هى قوة نبل النفس !!

وماذا أقول عن بولس ، ألم يحتمل أحزاناً كثيرة لا يمكن إحصائها : من إلقاء فى السجن وتثقيل بالقيود ، وضعه تحت حراسة مشددة ، جلد من اليهود ، رجم ، تمزق ظهره لا بالسياط فحسب بل وبالعصى أيضاً ، غرق فى البحر ، مهاجمة لصوص فى مرات كثيرة ، صراع مستمر مع بنى

جنسه ومع الأعداء والمعاندين ، مكائد بلا عدد ، جهاد فى جوع وعرى كوارث ، أحزان دائمة ... يكفى أن أقول أنه كان يموت كل يوم . وبالرغم من هذه الآلام المبرحة ، لكنه لم ينطق بكلمة تجديف ، بل أكثر من هذا فى وسط هذه كان فرحاً مفتخراً بها . إذ يقول «أفرح فى آلامى» كو ١ : ٢٤ . ومرة أخرى « وليس ذلك فقط بل نفتخر أيضا فى الضيقات» رو ٥ : ٣ .

لقد كان فرحاً فى أثناء تعذيبه بهذه الضيقات الشديدة ، مفتخراً بها . إذن فما هو العذر الذى تقدمه لتذمرك بسبب عـــدم إحتمالك لأمور أقل من هذه ؟!

يوحنا ذهبى الفم

† † †

٢ — هل الفقر يؤذيك ؟

كيف أقدم صدقة ؟

† قد يقول قائل : لقد أصابنى أذى بطريق آخر ، وهو أننى وإن كنت لا أجدف بسبب سلب أموالى لكنى صرت عاجزاً عن تقديم الصدقة .

هذا اعتراض هين وإدعاء بسيط . لأنك إن كنت تحزن بسبب هذا ، فاعلم أن الفقر لا يقف حائلا أمام العطاء . لأنه مهما بلغ فقرك

لن يصـــــل إلى فقر الإمراة التى لم تـكن تملك إلا ملء كف من الدقيق (١ مل ١٧ : ١٢) أو تلك التى لم يـكن معها سوى فلسين (لو ١١ : ٢) . هاتين الإمرأتين قدمتا كل ما لديهما . وقد كانتا موضــــع إعجاب فائق . ففقر عظيم كهذا لا يقف عائقاً أمام العطف ، إذ صدقة من فلسين كانت وفيرة ، تـكشف عن كرم زائد يفوق كرم كل الأغنياء ، وبالنية السليمة والغيرة المتقدة فاقت هؤلاء الذين ألقوا نقوداً كثيرة .

إذن ، حتى فى هذا الأمر لا يصيبك أذى ، بل بالحـرى تـكون قد إنتفعت ، نائلا بتقديم صدقة صغيرة مكافأة أكثر جـــداً ممن يدفعون ملايين ضخمة .

يوحنا ذهبى الفم

† † †

هل أضر الفقر بلعازر ؟

قد يقول قائل : أن الفقر يجعل الناس متضجرين ، وغالباً ما يدفعهم إلى النطق بكلمات تجديف ، وينزل بهم إلى الأعمال الدنيئة .

ليس الفقر هو الذى يفعل بالإنسان هكذا ، بل دناءة النفس ، لأن لعازر كان فقيراً ، نعم كان فقيراً جداً ، ويعانى بجانب فقره من ضعف جسدى أقسى بـكثير من الفقر فى أى صورة من صوره ، الأمر الذى جعل

فقره قاسياً جـــداً . وبجانب هذا الضعف أيضاً ، كان محروماً تماماً من الذين يعولونه ، مع صعوبة ايجـاد أى مثونة لسد أعوازه ، الأمر الذى ضاعف من مرارة فقره وضعفه ... فعدم وجـود من يعوله ، يجعل ألمه أشد ، واللهب أقسى ، الـكارثة أمر والمجرب أكثر وحشية ، والأمواج عنيفة والأتون أكثر إتقاداً ...

وهناك أيضاً تجربة رابعة بجانب الجوانب الثلاث السابقة ، وهى عدم اكتراث الغنى به رغم ترفه .

وإن أردت ، تجد أيضاً أمراً خامساً يزيد التهاب النار . . أن الغنى ليس فقط يعيش فى حيـــاة ترف ، بل ويرى الفقير مرتين وثلاثة بل ومرات عديدة يراه كل يوم ملقى عند بابه ، إذ هو مشهد خطير لـكارثة يرثى لها ، بمجرد النظر اليه يـكفى أن يلين القلب الحجرى ، ومع هذا فإن المنظر لم يدفع الرجل القاسى الى مساعدة هذا الفقير الى هذه الدرجة ؛ إنما كان يقيم مائدته المترفة ، عليها الـكؤوس المزينة بالورود ، والنبيذ النقى يصب بغزارة ، لديه جيوش من الطباخين والمتطفلين والمتملقين يعملون منذ الفجر المبـكر ، وفـــرق من المغنين وحاملى الـكؤوس والمهرجين ، ويقضى كل وقته منغمساً فى الملذات والسكر والأكل بشـــراهة ، متنعماً بالملبس والأكل وبأمور أخرى كثيرة .

فمع أنه كان يرى هذا الفقير منكوباً بالجوع الزائد والضعف الجسدى

المر وبالقروح الكثيرة ، والحرمان والمرض الناتج عن هذا الحال ، إلا أنه لم يفكر فيه . فالمتطفلين والمتملقين كانوا يتنعمون بأكثر من احتياجهم أما الفقير — الذى كان فقيراً جداً ومنكوباً بمآسى كثيرة ، لم يعط له حتى الفتات الساقط من مائدته رغم اشتهائه له بشوق عظيم .

ورغم هذا كله ، فإن شيئاً من هذه الامور لم تؤذى لعازر إذ لم ينطق بكلمة قاسية ، ولا تكلم بحديث دنىء ، إنما كقطعة الذهب التى تشع ببريق أعظم كلما تنقت بنار متزايدة .

بالرغم من هذه الضيقات التى أحاطت به ، إلا أنه تسامى عليها ، وعلى ما تنتجه هذه الأمور من هياج .

فإن كنا نتكلم عن الفقراء عامة وما يثور فى النفوس من حسد وما يتعذبون به من تفكير الحقد الردىء ، وعند رؤيتهم للأغنياء ناظرين الى أنه لا تستحق الحياة المقسمة بالفقر أن توجد . هذا يفكر فيه الفقراء الذين يجدون القوت الضرورى ولهم من يعطيهم أعوازهم ، فكم يكون هذا الفقير لعازر ، ألم يكن بحق حكيماً جداً ، طيب القلب ، إذ يرى نفسه أفقر من كل الفقراء ، بل وبه ضعف ، وليس له من يقيه أو يعطفه عليه ، ملقى فى وسط المدينة وكأنه فى وسط صحراء بعيدة ، يتلوى من من مرارة الجوع ، ويرى كل الخيرات تتدفق على الغنى كما من نافورة .

ليس له أى تعزية بشرية ، ملقى كغذاء دائم تلحسه ألسنة الكلاب ، ومن ضعفه وتحطيم جسده لايقدر حتى على طردها !!

أما تدرك إذن أن الذى لا يؤذى نفسه لايقدر أن يؤذيه شيء ؟! ... لأنه أى ضرر أصاب هذا من ضعف جسده أو عدم وجود من يحميه أو التفاف الكلاب حوله أو من شر مجاورته للغنى ورؤيته عظم الترف والتنعم والكبرياء الذى للأخير ؟ هل هذه الأمور اضعفته ليضاد الفضيلة ؟ هل أوهنت هدفه ؟!

انه لم يؤذه شيء بالكلية ، بل كثرة أتعابه مع قسوة الغنى ، زودته قوة ، وصـــارت بالنسبة له دعامة لنوال أكاليل النصرة غير المتناهية ، كوسائل تزداد بها مكافأته ، وباعث لنوال جزائه ... إذ كان يحتمل تجربته بشجاعة وثبات عظيم ...

يوحنا ذهبى الفم

† † †

٣ – وماذا أيضا يقدر أن يؤذيك

المرض

وأيضاً أى ضرر أصاب لعازر بسبب مرضه وقروحه وفقره وعدم وجود من يقيه ؟! ألم تكن هذه الأمور تضفر له إكليلا من زهور النصر ؟!

يوحنا ذهبى الفم

زجم الناس !!

وأى ضرر أصاب يوسف عندما أتهم بسمعة شريرة ، فى أرضه أو فى غربته فقد أتهم بالزنا والفسق ؟!

وماذا أصابه من صيرورته عبداً منفياً ؟!

أليس بسبب هذه الأمور صار يوسف موضع إكرام وتقدير ؟!

يوحنا ذهبى الفم

الموت

ولماذا أتحدث عن النفى فى أرض غريبة ، أو الفقر أو تشوبه السمعة أو الأسر ، فإنه أى ضرر أصاب هابيل بموته ، مع أنه مات موتاً عنيفاً ، فى غير أوانه ، وبيدى أخيه ؟!

أليس على حساب هذا صارت سمعة هابيل تجوب المسكونة كلها ؟!

يوحنا ذهبى الفم

أمثلة من واقع التاريخ

طاعة الله وإدراك حبه يتوقف على هدف الإنسان ورغبته فى الالتصاق بمصدر حياته ، وليس وليد ظـــروف تحيط به ، أو أشخاص يتعامل معهـــم .

فهناك أناس تحت ظـــروف حسنة ، وهبت لهم عطايا كثيرة لكنهم جحدوا الله ، وآخرون لم يتمتعوا بما تمتع به غيرهم لكنهم استطاعوا أن يلتقوا بالله .

ا – بين رجال نينوى واليهود الأشرار رافضى يسوع

هل تريد أن أورد لك مقارنة عن أمر متناقض ؟ ...

يقول الرب « رجال نينوى سيقومون فى الدين مع هذا الجيل ويدينونه » مت ١٢ : ٤١ .

الذين يدانون ليسوا مشابهين للذين يدينونهم ، بل احـــدهما أمم والآخر يهود .

واحد تمتع بالتعاليم النبوية ، والآخر لم يكن له نصيب فى التعاليم الإلهية .

وليس هذا هو الفارق الوحيد ، فانه فى حالة (أهل نينوى) ذهب الخادم (يونان) كسيد (كان حديثه جافا) ، وأما ذلك (الإله المتجسد) فقد أعلن بشرى ملكوت السموات المفرحة . فتظن أيهما أكثر (قبولا للكلمة) ؟ البرابرة الجهلاء الذين لم تكن لهم شركة فى التعاليم الإلهية أم أولئك الذين قد تدربوا منذ العصور الأولى على الكتب النبوية ؟ !

من الواضح للكل أن اليهود كان يجب أن يكونوا أقرب الى الإيمان –

لكن حدث العكس . لقد رفضوا السيد عندما بشر بملكوت السموات ، أما (أهل نينوى) فصدقوا العبد زميلهم عندما هدد بالدمار .

هذا يعلن صلاح (أهل نينوى) وغباء (اليهود) فى درجة عظيمة .

هل الشيطان هنا (هو السبب) ؟ أم الحظ ؟ أم القضاء والقدر ؟ أليس كل منهما (الشعبين) هما السبب فى الشر أو الفضيلة ؟ !

يومنا زهبى الفم

ب — هل انتفع اليهود قساة القلب بعطايا الله ؟ !

✝ أتريد أن أوضح لك هذا البرهان بأمثلة من جميع الأمم ؟ ! أى عطايا قدمت لليهود (فى خروجهم من مصر) ألم تقم المخلوقات المنظورة كلها بخدمتهم ، وأعطيت لهم وســـائل جديدة وفريدة للحياة ؟ ! فانهم (فى البرية) لم يكونوا يذهبون إلى سوق إنما يأخذون ما يشترى بمال مجاناً ،ولم يفلحوا أرضا ولا استخدموا محراثاً ولا مهدوا الأرض للزراعة ولا ألقوا بذاراً ولم يحتاجوا إلى أمطار ورياح أو فصول للسنة للزراعة ، أو أشعة شمس أو شكل معين للقمر أو طقس معين ولاشىء من هذا القبيل إنهم لم يمهدوا الأرض لدرس الحنطة ولا درسوا حنطة ولا استخدموا مذراة لفصل الحنطة عن القش ، ولا طاحوناً ولا فرناً ولا أحضروا

خشباً أو ناراً فى بيت . ولم يحتاجوا إلى أدوات للعجن ... ولا أى نوع آخر من الأدوات الخاصة بالنسيج والبناء وصنع الأحذية ، بل كانت كلمة الله هى كل شىء بالنسبة لهم .

لقد كانت لهم مائدة لم تعدها يد بشرية ، أعدت بلا جهاد أو تعب . لأنه هكذا كانت طبيعة المن ، أنه جديد وطازج ، ولا يحملهم أى مشقة أو جهاد .

أما ثيابهم وأحذيتهم وأبدانهم فقد فقدت ضعفها الطبيعى . فثيابهم وأحذيتهم لم تبلى بعامل الزمن وأرجلهم لم تتورم رغم كثرة السير . ولم يذكر قط أن بينهم كان أطباء أو دواء أو أى شىء من هذا القبيل ، وهكذا قد انتزع كل ضعف من بينهم . فقد قيل « فاخرجهم بفضة وذهب ولم يكن فى أسباطهم عاثر (هزيل) » مز ١٠٥ : ٣٧ ... أشعة الشمس فى حرارتها لم تضربهم لأن السحابة كانت تظللهم وتحيط بهم كمأوى متحرك يحمى أجساد الشعب كله . ولم يحتاجوا إلى مشعل يبدد ظلام الليل ، بل كان لهم عمود النار كمصدر إضاءة لاينطلق به يقوم بعملين : الإضاءة مع توجيههم فى طريق رحلتهم ... قائداً هؤلاء الضيوف الذين بلا عدد فى وسط البرية بدقة أفضل من أى مرشد بشرى . ولم يرحلوا فقط على البر بل وفى البحر كما لو كان أرضاً يابسة ... فقد قاموا بتجربة جريئة تخالف قوانين الطبيعة إذ وطئوا البحر الثائر ، سائرين فيه كما على صخر يابس صلب . فاذ وضعوا

أقدامهم فيه صارت مادته كالأرض اليابسة ... وإذ وصل اليه الأعـــداء عاد إلى ما كانت عليه طبيعته ، فصار للأولين مركبة وللأعداء قبراً ... فقـــام البحر الذى لايفهم بدور محـــكم كـأعقل وأذكى انسان ، قام بدور حارس مرة وبدور منتقم مرة أخرى ، معلناً هـــذا العمل المتناقض فى يوم واحـــد .

وماذا أقول عن الصخرة التى أخرجت ينابيع ماء ؟ وسحاب الطيور الذى غطى الأرض بكثرته ؟ وماذا عن العجائب التى حـدثت فى مصر ؟ ...

ان هذه العجائب جميعها لم تـكن لمجرد اشباع احتياجاتهم ، إنما لـكى يحفظ الشعب التعاليم المسلمة لموسى عن معرفة الله بدقة زائدة ...

ومع ذلك فانه بعد عناية ملموسة عظيمة هـكذا ، وبركات لاينطق بها ومعجزات قوية ، واهتمام زائد ، وتعليم مستمر ، وتحـذيرات تارة بالـكلام واخرى بالأعمال ، ونصرات مجيدة ونجاح غير طبيعى وشبع زائد لاحتياجاتهم من الطعام وفيض مياة غزيرة ، ونظرهم مجـــد غير منطوق به فى أعين الطبيعة البشرية (موسى) . مع ذلك فقد تذمروا وبلا أى احساس عبدوا العجل وكرموا رأس الثور ، رغم تذكرهم بركات الله ... بل وكانوا لازالوا يتمتعون بها .

يوحنا زهبى الفم

† † †

ح - استعداد شعب نينوى للتوبة

٢ وأما أهل نينوى فبالرغم من كونهم شعب بربرى وغريب ، ليست له أى شركة فى البركات ، صغيرة كانت أم كبيرة ، لا بكلمات ولا بمعجزات ولا بأعمال ، هؤلاء عندما رأوا إنسانا منقذاً من الغرق ، لم يلتق بهم من قبل ولا سبق لهم أن عرفوه ، يدخل مدينتهم قائلا « بعد (أربعين) يوماً تنقلب نينوى » يونان ٣ : ٤ . رجعوا وتابوا ... ونزعوا شرورهم القديمة وتقدموا فى حياة الفضيلة بالتوبة ، حتى جعلوا العبارة (الخاصة بالغضب الإلهى) ينتهى مفعولها ... « فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذى تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه » يونان ٣ : ١٠ .

كيف تغير هؤلاء رغم شرهم العظيم وقسوتهم غير المنطوق بها وقروح أخلاقهم المستعصية العلاج ، إذ مكتوب « قد صعد شرهم أمامى » يونان ١ : ٢ مشيراً إلى العلو المكانى كتعبير عن مقدار عظمة شرهم ، إذ قد تكدس إلى علو هذا قدره ، حتى بلغ إلى السماء ... ؟!

أنظر إذن كيف يمكن للإنسان الساهر الضابط لنفسه المتيقظ ليس فقط لا تمتد إليه أيدى بأذى بل ويستطيع أن يرفع الغضب السماوى !!

فشعب نينوى رغم أنه لم يكن لهم أى نصيب من المعجزات التى

للشعب اليهودى (القاسى القلب) ، لكن بقدر ما كان لديهم من استعداد داخلى حسن ، فإنه إذ أعطيت لهم فرصة بسيطة استفادوا منها ليصيروا إلى حالة أحسن ، رغم جهلهم بالوحى الإلهى وأبتعادهم عن فلسطين !!

يوحنا ذهبى الفم

د - موقف الثلاثة فتية

مرة أخرى أسأل : هل فسدت فضيلة « الثلاثة فتية » بسبب المتاعب التى حلت بهم ؟ فرغم صغرهم ، بل صغرهم جداً من جهة السن ... ألم يخضعوا للأسر المؤلم الخطير ؟ ألم يقصوا بعيداً جداً عن بلدهم ؟ ... ألم يحرموا من بلدهم وبيتهم وهيكلهم ومذبحهم وذبائحهم وتقدماتهم حتى من أدوات ترتيل بالمزامير ؟! ... إذ كنتيجة حتمية قد حرموا من كل أشكال العبادة . ألم يسلموا فى أيدى همجية هم ذئاب أكثر منهم بشر ؟ وحاقت بهم كوارث أعظم من الكل ... محتملين الأسر الخطير بلا معلم ولا نبى ولا مرشد ... علاوة على هذا حملوا إلى القصر الملكى وصار كمن هم بين الشقوق والصخور مبحرين فى بحر مملوء بالشعاب والصخور مجبرين على الإبحار فى بحر من الغضب بلا مرشد أو عامل للإشارات أو طاقم أو بحارة محبوسين فى القصر الملكى كمن فى سجن ؟ ! ولكن بقدر ما عرفوا الحكمة الإلهية وسموا بالأمور الإلهية واحتقروا كل كبرياء بشرى وصارت لهم

أجنحة لأرواحهم يحلقون بها عالياً ، معتبرين أن غربتهم هنـــاك كأنها تشديد لمتاعبهم .

فإنهم لو كانوا خارج البلاط يقطنون فى مسكن خاص ، لـكانوا أكثر استقلالا ، لـكنهم بهذا ألقوا كما فى سجن ... خاضعين لأى أمر أو تدبير قاسى مباشرة . فإذ طلب الملك منهم أن يشاركوه فى مائدته وترفه واطايبه الدنسة ، الأطعمة المحرمة عليهم ، كان هذا بالنسبة لهم أرعب من الموت . وقد كانوا كحملان وسط ذئاب كثيرة ، مجبرين اما أن يعدموا أو يأكلوا الطعام المحرم ...

انهم لم يبالوا بالسلطان القــاسى المطلق ، مع أنه كان لديهم ما يبررون به طاعتهم له ، لـكنهم قدموا نصيحة ورأيا مناسباً حتى يتجنبوا الخطية رغم تجريدهم من كل شىء . إذ لم يـكن ممـكنا أن يغروا (رئيس الخصيان) بمال فـكم بالأكثر وهم أسرى لا يملكون مالا ؟ ! ولا بصداقات أو صــــلات اجتماعية أن تشفع لهم أمامه ، فـكم وهم غرباء ؟! وما كان يمكن أن يتحسن موقفهم حتى وان كان لهم سلطان ، فـكم وهم عبيد ؟ ! وما كانوا يسيطرون عليه بكثرة العدد ، فـكم يـكون موقفهم وهم ليسوا إلا ثلاثة ؟!

ومع ذلك إقتربوا إلى الخصى الموكل إليه بهذا العمل ، واقنعوه بحججهم إذ رأوه خائفاً ومرتعباً ... إذ يقول « انى أخاف سيدى الملك الذى عين طعامكم وشرابكم . فلماذا يرى وجوهكم أهزل من الفتيان الذين من جيلكم

فتدينون رأسى » دا ١ : ١٠ . انقـذوه من هذا الرعب ، واقنعـوه أن يعطيهم مهلة ... وإذ عملوا بكل قوتهم سـاهم الله أيضاً بقوته ... وإذ أعلنوا نبلهم وشجاعتهم ربحـوا لأنفسهم العون الإلهى وهكذا تحققت أهدافهم .

هل تدرك أن أى إنسان لا يضر نفسه لا يقدر أحد أن يضره ؟ أنظر على الأقل إلى حداثة سن هؤلاء وأسرهم ... الخ . فإن هذا كله لم يضرهم بل على العكس صار لهم بسببه سمعة أفضل مما كانت لهم قبل حرمانهم .

وهكذا بعد ما نفذوا عملهم فانهم خضعوا لأعـداء آخرين ، ومرة أخرى كانوا هم نفس الرجال ، وقد خضعوا لتجربة أقسى من الأولى . إذ أشعل لهم أتون ، وتصدى لهم جيش من المتبربرين يصحب الملك ، وكل طاقة الفرس قد وجهت لتمكر بهم وتضايقهم ... ومع ذلك بقدر ما هم لم يخونوا أنفسهم بل قدموا كل ما فى طاقتهم ، لم تصيبهم أى خسارة بل ربحوا لأنفسهم أكاليل نصرة مجيدة لم ينالوها من قبل . فنبوخذ نصر ربطهم وألقى بهم فى الأتون ، لكنه لم يحرقهم ، بل بالعكس أفادهم وردهم ممجدين . وبالرغم من حـرمانهم من الهيكل والمذبح . مع إلمائهم فى الأتون وقد إلتف حولهم كثيرون جبابرة والملك نفسه الذى سمح بهذا يتطلع إليهم ؛ فإنهم شيدوا نصباً تذكارياً مجيداً ، ونالوا نصرة ملموسة ، مرتلين

بتسبحة عجيبة وغريبة ، التى من ذلك اليوم إلى الآن ينشد بها فى العالم ، وستبقى إلى مدى الأجيال ...

فإن كان السبي والعبودية ... لم تقدر أن تفسد الفضيلة الداخلية للثلاثة فتية المأسورين ، المستعبدين ، الغرباء ... بل صار مقاومة الأعداء بالنسبة لهم بالحرى فرصة لنوال ثقة (إيمان) أعظم ، فأى شيء يمكن أن يضر الإنسان الضابط لنفسه ؟ لاشيء يضره ، ولو قام العالم كله فى جيوش ضده . لكن قد يقول قائل : أنه فى حالة هؤلاء الفتية كان الله واقفاً معهم ، وحماهم من النيران . بالتأكيد هذا حدث ، فإن قمت أنت بواجبك قدر قوتك ، فإن العون الإلهى حتما سيرافقك .

ومع ذلك فإن السبب الذى لأجله أعجب من هؤلاء الفتية ، وأدعوهم طوباويين وأشتهى أن نقتدى بهم ، ليس لأنهم تغلبوا على اللهب ، وأطفأوا حرارتها ، بل لأنهم ربطوا وطرحوا فى الأتون ... لأجل الايمان المستقيم . فان هذا هو الذى شيد كمال نصرتهم . وإكليل النصر قد وضع على رؤوسهم فى اللحظة التى ألقوا فى الآتون ، قبل أن تتم تلك الأحداث ... بل وبدأت تضفر لهم هذه الأكاليل منذ اللحظة التى نطقوا فيها بتلك الكلمات المملوءة شجاعة وحرية فى الحديث مع الملك إذ كانوا فى حضرته « لايلزمنا أن نجيبك عن هذا الأمر . هوذا يوجد إلهنا الذى نعبده يستطيع أن ينجينا من اتون النار المتقدة وأن ينقذنا من يدك أيها الملك .

وإلا فليكن معلوماً لك أيها الملك أننا لا نعبد آلهتك ولا نسجد لتمثال الذهب الذى نصبته » دا ٣ : ١٦ - ١٨ . بعد ما نطقوا بهذه الكلمات أعلن نصرتهم . إذ أمسكوا باكليل المكافأة وأسرعوا إلى إكليل الاستشهاد المجيد ملحقين شهادتهم بكلامهم بشهادتهم بأعمالهم ...

ماذا إذن تقول عن هذه الأمور ؟ هل أنت نفيت واقصيت بعيداً عن بلدك ؟ أنظر فان هؤلاء أيضا حدث لهم هذا .

هل أنت أخذت أسيراً (فى حرب) وصرت عبداً لسادة متبربرين ؟... أو هل ربطت وأحرقت وقدمت للموت ؟ لأنك لا تستطيع أن تذكر لى أمور مؤلمة أكثر من هذه ؟ ومع ذلك فان هؤلاء الرجال إجتازوا هذا كله وصار أكثر مجداً بسبب كل ألم من هذه الآلام ، نعم وأعظم شهرة ، وإزدادت مخازن كنوزهم فى السماء ... (١) .

يوحنا ذهبى الفم

الإختلاف بين آدم وأيوب

† حقاً لقد هاجم (الشيطان) آدم بالكلام المجرد ، أما أيوب فهاجمه بالأفعال لأنه نزع عن واحد كل ثروته وحرمه من أولاده ، أما الآخر (آدم) فلم يأخذ كثيراً أو قليلا من ممتلكاته .

(١) لم أترجم بعض الفقرات لعدم التكرار .

لنتحن نفس الكلمات وطريقة الخطة . يقول (الكتاب) « فقالت (الحية) للمرأة أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ، تك ٣ : ١ .

هنا نجد حية أما بالنسبة لأيوب فنجد إمرأة . بمعنى أن هناك فارق بين مقدمى المشورة . أحدهما حية ، والأخرى شريكة حياة الرجل (أيوب)، أى معينته ، أما الأولى فهى خاضعة تحت سلطانه .

هل كان لحواء عذر ؟

١ — حقاً لقد خدعته حواء الخادمة فى الخضوع ، لكن (أيوب) لم تقدر ان تهلكه ولا حتى شريكته ومعينته .

أنظر ماذا تقول الحية « أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة » أنظر إلى لؤم الشيطان ، لقد قال بما لم ينطق به الله حتى يتعلم ماذا قال الله لهما .

ماذا فعلت المرأة ؟

كان يجب عليها أن تصمت . كان يلزمها ألا تبادلها الحديث ولكن فى غباء كشفت قول السيد ، وبذلك قدمت للشيطان فرصة عظيمة ...

انظروا أى شر هذا ، أن نسلم نفوسنا فى أيدى أعـــدائنا والمتآمرين ضدنا ؟ ! لهذا يقـــول السيد المسيح « لا تعطوا القدس للكلاب . ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير (لئلا تدوسها بأرجلها) وتلتفت فتمزقكم»

مت ٧ : ٦ . وهذا ما حدث مع حـــواء . لقد أعطت القدس للـكلاب والخنازير ، فداست عليها بأرجلها والتفتت ومزقت المرأة .

٢ — انظروا كيف عمل الشيطان شـــراً ، بقوله لها « لن تموتا » تك ٣ : ٤ .

التفت معى إلى هذه النقطة ، فان المرأة كان يمكنها أن تفهم الخديعة . إذ أعلن الشيطان عداوته وحربه ضد الله ، مناقضاً كلمات الله ...

قبل هذا القول كنت تعلمين (قول الرب) لمن يريد أن يتعلم ، ولـكن لماذا تستمرين فى الحديث مع من ينطق بما يضاد (قول الله) ؟! لقد قال الله « موتاً تموت » . أما الشيطان فقد أجاب قائلا « لن تموتا » . هل توجـد عداوة أكثر من هذه ؟ ! كيف يلزم على الإنسان أن يدرك العدو والخصم إلا من هذه الإجابة المناقضة لأقوال الله ؟ ! كان يجب عليها أن تتهرب للحال من الطعم (الذى فى الصنارة) ، وتتراجع عن الشبكة (المنصوبة) .

لقد قال « لن تموتا . بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينـكما . وتـكونان كالله » تك ٣ : ٤ ، ٥ . لقد طرحت بالخير الذى فى يدها على رجاء نوال وعـــد أعظم . لقد وعدها بأن يجعلهما إلهين فطرحهما فى جور الموت .

كيف إذاً يا إمراة تصدقين الشيطان ؟ أى خـــير تشاهدينه فيه ؟!

ألم تكن ثقتك فى معطى الوصية كافية لتؤكد لك أنه واحد هو الله ، هو خالق العالم ومنظمه ، والآخر هو شيطان وعدو ؟!

٣ ـ وأنا لا أقول شيطان ، فربما حسبته مجرد حية . فهل للحية أن تدعى المساواة (لحواء) حتى تطلب منها أن تعرف حكم الله ؟

ها أنتم ترون أن حواء كان يمكنها أن تعرف الخديعة ، لكنها هى التى لم ترد أن تعرف ، وقد وهبها الله أدلة كثيرة عن احساناته وأظهر لها عنايته بعمل يديه . فقد خلق الإنسان الذى لم يكن له وجود من قبل ، ونفخ فيه روحا ، وصورة على صورته وأعطاه سلطاناً على كل ما على الأرض ، ووهب له معينة ، وغرس له الفردوس ، وأوصاه أن يأكل من كل بقية الشجر غير أنه لا يتذوق واحدة منها ، وهذا التحريم ذاته كان لأجل خير الإنسان . أما الشيطان فلم يظهر عملا صـــالحاً ـ قليلا كان أم كثيراً بل أغوى المرأة بالكلام المجرد ونفخها برجاء باطل ، وهكذا خدعها . ومع هذا فإنها نظرت إلى الشيطان على أنه موضع ثقة أكثر من الله ، مع أن الله أظهر إرادته الحسنة بأعماله .

لقد وثقت المرأة فيمن يمتهن الكلام المجرد .

هل رأيت كيف حدثت الغواية لا عن إلزام بالقـــوة ، إنما كنتيجة للغباء والكسل ؟ ولكى تتأكد من هذا بوضوح ، إستمع إلى اتهامات

الكتاب المقدس للمرأة « فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ... فأخذت من ثمرها وأكلت » تك ٣ : ٦ . فاللوم يلقى على عدم ضبطها للنظر وليس فقط على الخداع الذى بثه الشيطان .

لقد إنهزمت من شهوتها المسيطرة وليس بسبب شر الشيطان لهذا لم يكن لها أن تنتفع بالأعذار ، فرغم قولها « الحية غرتنى » إلا أنها سقطت تحت العقوبة تماماً . لأنه كان لها القدرة ألا تسقط .

موقف أيوب :

... بالنسبة لأيوب نصبت فخاخها بعد هلاك ثروته وفقدان أولاده ونزع كل ممتلكاته . أما فى الحالة الأخرى ، فإنه لم يعانى من دمار ... بل كان قاطناً فى فردوس الترف ، متنعماً بكل صنوف الفواكه والينابيع والأنهار ... حيث لا تعب ولا ألم ولا يأس ولا إتهامات ولا توبيخات ولا سب وغير ذلك من تلك الشرور التى أحاقت بأيوب ومع هذا سقط آدم وانهزم . إذاً أليس من الواضح أن سبب إنهزامه هو تراخيه ؟!

أما الآخر فعندما أحفت به كل هذه واثقلت عليه ، وقف ثابتاً فى نبل ولم يسقط . أليس من الواضح إذاً أن ثباته كان بفعل يقظة نفسه ؟

† † †

لنقتد بأيوب المجرب [1]

† أيها الأحباء لنقتد بأيوب المجرب ، مجتنين أقصى ربح من كلا الحالتين (آدم وأيوب) ، متجنبين الامتثال بآدم ، عاملين عظم الامور الجيدة التى تنبع عن الغيرة (اليقظة) .

تأملوا ذلك الذى صار معدماً فى كل شىء ، فانه سيكون مصدر تعزية بالنسبة لكم فى كل ألم وكل كارثة . إذ هو كمن يقف على مسرح العالم عامة ، ويتحدث ذلك الرجل المبارك النبيل مع الجميع عن الآلام التى احتملها ، حتى يحتملوا كل ما يحل بهم بنبل ولا يستسلموا المتاعب التى تحف بهم . لأنه لا توجد متاعب بشرية لا نأخذ عنها تعزية من هنا . إذ المتاعب التى تبعثرت فى العالم كله ، نجدها قد تجمعت هنا فى جسد شخص واحد .

ا ــ افتقر أكثر من الشحاذين

لنذكر تلك (الكارثة) التى تبدو للجميع أنها غير محتملة ، أقصد الفقر وما ينشأ عنه من ألم . لأنه فى مكان ينتحب الناس من أجل الفقر .

من كان أكثر فقراً من أيوب الذى أفتقر أكثر من (الشحاذين) ،

---

(١) الحديث التالى للقديس يوحنا ذهبى الفم .

السالكين فى الطرق ... ؟ ! فهؤلاء لهم ثوب ممزق ، أما هو فجلس عرياناً ، إنما كان له ذلك الثوب الذى أمدته به الطبيعة ، أى الجسد ، وحتى هذا الثوب مزقه الشيطان من كل جانب ، بل أصابه بالقروح ...

هذا القطيع الفقير له على الأقل أن يستظل تحت سقيفه فى الطرقات ولهم مأوى ، أما أيوب فبقى لياليه فى العراء لاسقف له يأويه .

وما هو أشد من هذا ، أن هؤلاء (ربما) يشعرون بشرور مرعبة فى حيـــاتهم (هى السبب فى التأديب) ، أما هذا فلم يكن يشعر بشىء فى داخله ... الأمر الذى سبب له آلاماً مبرحة وأوجـــد فيه حيرة شديدة وذلك لجهله سبب ما حدث له .

قلت أن هؤلاء لهم ما يوبخون به أنفسهم ، وهذه تساهم بتعزية ليست بقليلة فى أثناء الكارثة ، أن يشعر الإنسان أنه يعاقب بعدل . أما أيوب فقد نزعت عنه كل تعزية ...

هؤلاء ... فقراء منذ بداية حياتهم فاعتاذوا على ذلك . إنما هو احتمل الكارثة التى لم يعتد عليها ، مختبراً الحـــرمان الشديد من الثروة (التى كانت له) . وكما أن معرفة السبب تعطى الإنسان تعزية عظيمة ، فانه ليس بأقل منها أن يكون الإنسان قد ذاق الفقر منذ البداية واستمر فيه .

لقد حـــرم هذا الرجل من كل هذه التعزيات ولم يقف أمره عند هذا

الحد ... نعم أنه بالحرى لم يكن له حتى فى سلطانه أن يتمتع بالأرض المجردة ، بل جلس فى مزبلة .

لذلك عندما ترى نفسك تفتقر تأمل ما احتمله هذا البار ، وللحال ارتفع وتنفض عنك كل قنوط ...

إحتماله الآلام الجسدية

والكارثة الثانية بعدها ـ بل بالحرى قبلها (أى أشد من الفقر) ، ألا وهى آلام الجسد . من هو عاجز مثله ؟ من يحتمل أمراضاً هكذا ؟ من يعانى ، أو رأى إنسانا يعانى من آلام مبرحة كهذه ؟ لا أحد . لقد كان جسده يخور شيئاً فشيئاً ، وعواصف القروح تهب عليه من كل جانب ، فى كل أطرافه ... والرائحة الكريهة تحيط به بعنف ، والجسد يتحطم قليلا قليلا وتصيبه العفونة ، لهذا صار الطعام بالنسبة له لا طعم له أما الجوع فصار غريباً وشاذاً بالنسبة له . فلم يكن فقط غير قادر على التمتع بالقوت الذى يعطى له ، بل قال عنه « خبزى الكريه » أى ٦ : ٥ .

أيها الإنسان ، ان سقطت فى ضعف اذكر ذلك الجسم المقدس لأنه كان مقدساً ونقياً حتى عندما أصابته جروح كثيرة !!

... وان أخذ انسان ظلماً بغير ذنب ، ووضع فى حماك (١) وقطعته

(١) آلة تقمط على العنق واليدين (pillory) .

أعضاؤه إلى أجـــزاء ... فلينوع آلامـــه بتذكره هذا القديس .

لكن ربما يقول قائل : لكن هذا الإنسان كانت له راحـــة عظيمة وتعزية ، لأنه يعلم أن الله هو الذى جلب عليه هذه الآلام .

بالحقيقة هذا كان يقلقه بالأكثر ويضايقه ، أن يفكر فى الله العادل والذى يخدمه بكل الطرق يحاربه . ولم يكن لديه علة مقبولة لما حدث . لذلك عندما علم أخيراً السبب ، أنظر أى ورع أظهـــر ... أنه يقول « وضعت يدى على فـــى . مرة تكلمت فلا أجيب ومرتين فلا أزيد » أى ٤٠ : ٤ ، ٥ . ومرة أخرى يقول « بسمع الأذن قد سمعت عنك والآن رأتك عينى . لذلك أرفض واندم فى التراب والرماد ، أى ٤٢ : ٥ ، ٦ .

ولكن ان حسبت إن هذا كان كافيـــاً للتعزية ، فإنك تستطيع أنت أيضاً أن تختبر هذه التعزية . لأنه وإن لم تعانى من هذه الكوارث (من يدى الله) لكن كنتيجة لعجرفة البشر ، قدم التشكرات لله ولا تجدف عليه هذا الذى هو قادر أن يمنعهم عنك فتحصل على نفس المكافأة ...

إحتماله موت أولاده

... هل تريد أيضاً أن أريك القتال فى أيدى الطبيعة التى ثارت ضد هذا النبيل بدرجة زائدة ؟

لقد فقد أولاده العشرة ، الكل اكتسحوا دفعة واحدة ، والكل فى ريعان شبابهم ، والعشرة كانوا فضلاء ، ولم يموتوا موتاً طبيعياً بل موتاً قاسياً يرثى له . من يقدر أن يعبر عن كارثة كهذه ؟! لا أحد .

عندما تفقد إبناً وابنة فى وقت واحد ، تطلع إلى هذا البار فتجد عزاء عظيماً لنفسك .

إحتماله سخرية البشر

... وكان أيضاً هروب أصدقائه منه واستهزائهم وسخريتهم وتهكمهم وتجريحهم له أمراً لا يطاق . فإن آلام الكارثة لا تعادل تلك التى من أولئك الذين يوبخوننا ونحن فى كارثتنا ...

ليس فقط لم يوجد من يلطف الكارثة ، بل الكل كانوا يقرعون به . وها أنت تراه ينتحب بمرارة قائلا لهم انهم هم أيضاً يعذبونه (أى ١٩ : ١) . وقد دعاهم غير رحماء بقوله « أقاربى قد خذلونى والذين عرفونى نسونى . نزلاء بيتى وإمائى يحسبوننى أجنبياً . صرت فى أعينهم غريباً . عبدى دعوت فلم يجب ... بفمى تضرعت إليه » (١) أى ١٩ : ١٤ - ١٦ .

ويقول أيضاً انه صار موضع حديث الكل يتسلون به (أى ١٩ : ٩ ، ١٠) . بل ويقول « حتى تكرهنى ثيابى » أى ٩ : ٣١ .

---

(١) استحسنت ذكر النص كاملا .

إحتماله أهوال الليل

لم يجد أيضاً راحة حتى بالليل ، فان أهوال الليل المرعبة أقسى من مصائبه بالنهار ... « ترعبنى بالأحلام وترهبنى برؤى » أى ٧ : ١٤ .

أى رجل من حديد ، أو قلب من فولاذ حتى يحتمل هذه المصائب جميعها ؟ ! ان كان كل كارثة لا تحتمل على حده ... ومع ذلك احتمل الكل وفى كل ما حدث له لم يخطىء ولا نطق على شفتيه بشر .

أنت بلا عذر

لتكن آلام هذا الرجل أدوية لأمراضنا ، وأمواج بحره الهائج ميناء لأتعابنا ، ناظرين إلى هذا القديس فى كل ما يحدث لنا ، فنراه يعلو على مصائب الحياة ، فنسلك نحن بشجاعة .

ولكن إن قلت : انه أيوب !! ولذلك احتمل كل هذا . أما أنا فلست مثله . فانك بهذا تمدنى باتهام عظيم ضدك ومديح جديد له . لأنه كان الأجدر بك أن تحتمل أكثر منه .

قد تسألنى : لماذا ؟ لأنه كان أيوب فى عهد ما قبل النعمة وقبل الناموس ، حيث لم تكن هناك حياة محددة ولا أعطى نعمة الروح القدس العظيم ، عندما كان يصعب محاربة الخطية ، وكانت اللعنة سائدة والموت مرعباً . أما الآن فقد صارت المصارعة أسهل ، وهذه الأمور (اللعنة)

استبعدت بعد مجيء المسيح ، حتى أنه ليس لنا عذر أن لم نصل إلى مستواه بعد طول زمن ومزايا كثيرة نلناها ، وعطايا وهبها الله لنا .

إذاً بالنظر إلى كل هذه الأمور ، انه كان الخصم أكثر خطـــورة والإنسان أعزلا أمام عدوه (الشيطان) فعلينا أن نحتمل بنبل كل ما يحـل بنا ، شاكرين على ذلك ، حتى يمكننا أن نحصل على نفس الإكليل الذى لأيوب ، بنعمة ورأفة ربنا يسوع المسيح الذى له المجد مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى أبد الآبدين . آمين .

يوحنا ذهبي الفم

† † †

الله والنفس البشرية

كثيراً ما يتصاغر الانسان أمام نفسه ، فيرى نفسه المخلوق الصغير أمام تلك الطبيعة بكل جبروتها ...

انه الانسان الذى يظهر قليلا وكخيال يتمشى على الأرض ليختفى ...

انه المخلوق الذى قد يعثر بحجر صغير فيسقط ميتاً ، او يهاجمه ميكروب ما أصغر من أن تراه العين فيلقيه على الفراش يتلوى سنوات طويلة ... يشوق الى الموت فلا يجده ...

إنه كائن ضعيف ... ربما من أجل شهوة بسيطة دنيئه ينسى كرامته ويبعثر أمواله ويهدم وحدة الأسرة وربما يفقد كل شيء ... وهو يعلم انها لذة وقتيه سرعان ماتزول !!

أخى ... ويحنا نحن الأشقياء ... لأن الخطية أفسدت نظرتنا لحقيقة نفوسنا ...

أتريد أن تعلم من أنت ؟ إنك موضوع حب الله ... انك موضوع إهتمامه وعنايته ، حتى يبدو كما لو نسى العالم كله من أجلك .

عندما خلقك « رأى الله كل ما عمله فاذا هو حسن جداً » تك ١ : ٣١ .
يتطلع اليك فيرى فيك صورته ومثاله ... فيك العقل ، ولك حرية الإرادة
انعم عليك بالقدرة على الحب والانجذاب نحو الخالق لتشبع منه وتنعكس
إنطباعاته عليك ، فيفرح بك .

خلق السماء والأرض ليزولا يوماً ما (مت ٢٤ : ٣٥) ، أما أنت
فأوجدك لتحيا خالداً الى الأبد .

هذه هى نفسك التى لم يقبل الرب أن يقارنها بالعالم كله قائلا « ماذا
ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه »

علاقته بك - كما سبق أن راينا - هى علاقة محب لمحبوبه ...

ماذا فعلت بي الخطية ؟

أما وقد اخترت بإرادتى الاستقلال عن الله ليكون لى كياناً خاصاً بى ،
بعيداً عن لجة محبة الله .. وهذه هى خطية آدم الاولى بل وكل خطية
نرتكبها ... فقد فصلت نفسى عن مصدر سعادتها وشبعها وحياتها وسقطت
تحت نير الخطية ، ووقعت تحت سطوة ظلمها .

إذ اخترت الخطية بإرادتى ، قدمت هى لى كل ماعندها ورغماً عنى ...
وماذا لدى الخطية الا الحرمان والظلم والموت .

(ا) حرمان : قدمت لى تفاحة من « شجرة جيدة للأكل ... بهجة

العيون ... شهية النظر ، لكنها افقدتنى الشبع وحرمتنى من الفردوس.. ابعدتنى عن السلام والفرح والخير ...

(ب) ظلم : الله حق ، وخارج عنه ظلم ... والخطية ليست من صنع الله ، بل هى عدم ... خارجة عن الحق ، خاطئة جداً ، لاتعرف قانوناً ولا ناموسا . ان كان لها قانون فهو التشويش والظلم عينه .

(ح) موت الخطية عدم ... كالظلمة التى هى انعدام للنور .

الخطية هى إنفصال عن الله خالق كل شيء ...

هى حرمان للنفس عن الله واهب الحياة ...

† † †

هذا ما وصلت إليه النفس البشرية بارادتها .

انحرفت الصورة عن أصلها فتلاشى جمالها ، وفسدت طبيعتها وزال سلطانها ، ولم تعد قادرة على الحياة أو اللقاء مع الله مصدر حياتها .

ارتبك الإنسان وارتعب ... ولكن عبثاً يحاول أن يخضع نفسه لإلهه بقوته الذاتية ... بعدما قدم لها العصيان واخضعها للظلمة ...

لقد حاول آدم ان يصلح خطأه بذاته ، فأكد رغبته بالأكثر فى استقلاله عن الله بذاتيته الخاصة ... مما أضاف إلى النتيجة الأولى نتائجاً

...وائيه ، هى استمرار لما [illegible] الإنسان فى ابتعاده عن مصدر صلاحه وعجزه عن العودة الى حياته الأولى ... فاذ صنع لنفسه لباساً من ورق التين ، جف الورق ، وكان اللباس فى ذاته كافياً ليؤكد للإنسان عريه ويفضح جريمته أمام نفسه .

لقد فلت زمام الأمر من يدى الانسان ، وصار لابد لهذا ـ الإله مادام محباً ـ أن يتدخل ليمحو نتائج ما ارتكبه الانسان بارادته .

صارت الحاجة إلى أن يعيد الله للانسان فرصة أخرى ... فى هـــذه الفرصة يعلن الله للإنسان أعماق حبه له ، ويقدم له عوناً وإمكانية حتى ـ إذا أراد ـ يمكن لأى إبن من أبناء البشر أن يتقبل محبة الله ويتجاوب معها .

ولكن كيف تأتى هـــذه الفرصة ... وقد سقط الإنسان الحر فى ارادته باختياره فى الخطية التى اثرها الموت .

هل يتدخل الله على حساب العـــداله فيغفر ... ولكن كيف تتحقق العدالة التى بلا حدود .

هل يمكن لإله هذا هو حبه وهكذا هى رحمته ، أن يترك الانسان يشقى ويهلك هلاكاً أبدياً ؟ !!!

إن هناك حاجة الى عملية مصالحة بين الله والإنسان ، فيها يدفع الله أجـــرة الخطية دون أن يتنازل عن عدالته ، ويحقق العداله فى أعماق

حبه !! وهذا بنعمة الله سيكون موضوع حديثنا فى الباب الثانى .

† النفس فى ذاتها ليس طبعها اللاهوت ، ولا طبعها الظلام ، بل هى مخلوقة مدركة جميلة وعظيمة وعجيبة وشريفة ، بكونها صورة الله ومثاله ، ولم يدخلها إنحدار أهواء الظلمة إلا بالمعصية .

† أيها الأخ الحبيب ... لا تستخف بطبيعة النفس التى لها الإدراك ، فان النفس الخالدة هى إناء ذو ثمن عظيم !!

أنظر وتأمل ما أكبر السماء والأرض ومع هذا لم يرتض الله بهما أعظم رضى (جا ٤ : ٥ - ٨) إنما يرتضى بك وحدك . فانظر قيمتك وكريم أصلك ...

لأن الإنسان كان سيداً على الكل ...

لكن ابليس نشر على عقله ضباباً ...

القديس مقاريوس الكبير

† أما الإنسان الذى له طبيعة تميل بين الملائكية والحيوانية ، فان الله خلقه هكذا حتى إذا بقى خاضعاً لخالقه كسيد له بحق ، ويحفظ وصاياه بورع ، تصير له شركة مع الملائكة ، وينال خلوداً مباركاً أبدياً ، دون أن يصيبه الموت .

أما إذا عصى الرب إلهه باستخدامه حرية إرادته بعجرفة وفد

عصيان ، فانه يخضع للموت ، ويسلك عبداً للشهوة ، ويحكم عليه بالموت الأبدى ...

القديس اغسطينوس

† نعم يالهى ... فى غياب نورك ظهـــور الموت ، أو بالحرى مجىء للعـــدم .

فالموت ليس له وجود فى ذاته . وهذا العدم يدفع بنا إلى العدم الذى للخطية ، فينزع عنا الخوف من ارتكابها ... فنخطىء وبالتالى ننحرف إلى الهاوية ، كمن يجرفه تيار ماء عنيف .

إلهى ... أن كان بدونك لم يخلق شىء ، فانه بالبعد عنك نصـــير بالخطية عدماً (أى فاسدين) ...

يا لشقائى ... لقد سادت على الظلمة ، ومع أنك انت النور ، إلا اننى حجبت وجهى عنك !!

يالشقائى ... أصابتنى جراحات كثيرة ، ومع أنك انت المعزى واهب السلام ، غير أننى ابتعدت عنك !!

يالشقائى ... لقد انتابتنى حماقات جمة ، ومع انك انت هو الحق غير اننى لم اطلب منك المشورة !!

يا لشقائى ... لقد تعددت طرق ضلالى ، ومع أنك أنت هو الطريق إلا انى إبتعدت عنك !!

يا لشقائى ، فالموت يحطمنى بضربات كثيرة ، ومع انك انت الحياة ، لكننى لم أكن معك ابداً !!

يا لشقائى ، فانى اسقط فى الشر والعدم كثيراً ، ومع انك انت هو « الكلمة » الذى به كان كل شيء ، إلا انى انفصلت عنك ، يا من بدونك لم يكن لى وجود !!

أيها الكلمة ملكى ، أيها الكلمة إلهى ، أيها النور الخالق ، أيها الطريق والحق والحياة ... يا مبدد الظلمة والشر والضلال والموت ... -

أيها النور الذى بدونك يصير الكل فى ليل دامس .

أيها الطريق الذى بدونك لا يوجد سوى الضلال .

أيها الحق الذى بدونك لايوجد سوى الباطل .

أيها الحياة الذى بدونك يخيم الموت على الجميع .

آه ! قل هذه العبارة « ليكن نور » ، عندئذ أستطيع أن اعاين النور وأهرب من الظلمة ؛

أعاين الطريق وأترك طرق الضلال ؛

أرى الحق وأبتعد عن الباطل ؛

أنظر الحياة وأهرب من الموت ؛

إشرق فى يا إلهى ، فأنت نورى واستنارتى .

إن انتهرتنى أخاف عدلك ، وافرح بملكوتك الحقيق ، واتمجد بك كإلهى ، وأحبك بكونك أب لى ، وأبقى وفياً كعريس لى .

أيها النـــور الاسمى ، تعجل بالاشـــراق فى أعمى يريد أن يصير ملكاً لك .

هوذا الظلمة قد احاطت فى وظل الموت اكتنفنى . فلأتجه بخطواتى فى طريق السلام الضيق المؤدى إلى ملكوتك الأقدس ومسكنك الأبدى . بهذا الطريق يتقدس إسمك ويعترف به .

وباعترافنا باسمك يكون قد تشكل الطريق الحقيقى الذى نبلغ به اليك أيها الطريق الحقيقى .

نعم . بك نترك مسالك الشر ، ونعود إلى الطريق الأسمى الذى ليس هو إلا أنت . لأنه بالحق لا يوجد غيرك أنت .

اغسطينوس

† إننى أعترف لك ... أعترف لك أيها الآب السماوى ، ملك الأرض والسماء ...

شروری سببت لی جراحات عميقـــة ، إذ لم أسلك فى الطـــريق الضيق . فمع كونك أنت الحياة ، إلا اننى لم أكن معك .

شروری هی عــــدم .

وإذ أنت هو الـكلمة الذى به كان كل شىء وبغيره لم يـكن شىء مما كان ، وإذ لم أكن أنا معك ، لهذا عدمت حياتى ، فارتـكبت العدم (الشر) الذى يقود إلى العدم (أى الموت الروحى أى فقـدان النفس الله مصدر حيـاتها) .

كل ما هو موجود ... هو من صنع الـكلمة ... ويا لهما من أعمـال حسنة « ورأى الله كل ما عمله فاذا هو حسن جداً » تك ۱ : ۳۱ .

فان كان الـكل من عمل يدى الـكلمة ، لهذا فان الـكل حسن ...

أما ما هو خارج الـكلمة فليس إلا العدم ... وما هو خارج الحسن (الله) الحقيقى لا يخضع للحسن ، لذلك فليس خارجـــه شىء حسن بل لا يوجد إلا الشر .

والشر هو ليس إلا انعدام للخير ، كما أن الظلمـة هى ليست بشىء فى حد ذاته بل انعدام للنور .

فالشر عدم ، هو ليس من عمل الـكلمة ... بل انفصال عن الـكلمة .

إلهى ... أشكرك لأجل النور الذى تهبنى إياه حتى أقـدر أن أرى ، فأراك وأعرفك انت بذاتك .

نعم ... اننى فى كل مرة ابتعد فيها عنك اسقط فى العدم والفساد ، وإذ أنساك اسقط فى الشر ، لأنك أنت هو « الخير » .

يا لشقائى ، فانه لم يكن لى معرفة أن فيك غنـاى أنا الذى ليس له وجـود .

ولكن ماذا أقول ؟ ان كنت غير موجود ، فكيف أرغب فى معرفتك .

اننى بانفصالى عنك أكون عدماً غير موجود ، فأكون كتمثال ليس له وجود (حياة) . له آذان ولا يسمع ، له أنف ولا يشم ، له يدان ولا يلمس ، له أقدام ولا يتحرك .

وفى كلمة اقول أن له هيكل الإنسان البشرى ، لكنه بلا حيـاة ولا إحساس .

اغسطينوس

† عندما انفصلت عنك يا إلهى ، لم أعد بعد موجوداً ، صرت كلا شىء ...

وفى وسط عماى وصممى وجمود حواسى ، أردت أن أدرك الخير وأهرب من الشر وأشعر بالألم وأتلمس ظلمتى ، لكننى لم أستطع بسبب

بعدى عنك أيها النور الحقيقى الذى يضىء لكل إنسان آت إلى العالم .

يا لشقائى ... لقد اثخنتنى جراحاتى ، لكننى لم أشعر بآلامها ، بل انجذبت إلى الشهوة بعنف بغير إحساس ... لأنى كعدم ، منعزل عن الحياة ، منفصل عن « الكلمة » خالق الكل . .

إلهى ... انت نورى ... هوذا اعدائى (الشياطين) قد صنعوا بى كل ما أرادوا ... ضربونى ، قتلونى ، نكلوا بجثتى ، دفعوا بى إلى الموت .

هذا كله كتأديب عادل استحقه بسبب انفصالى عنك ، وصيرورتى عدما (روحيا) لغيابك عنى ...

إلهى ... انت حياتى ، انت خالقى ، انت نورى ، انت مرشدى ، انت حصنى ووجودى ... ارحمنى واقبنى ...

يا الله إلهى ... أنت نسمات حياتى ، أنت صلاحى ، قوتى ، عزائى فى يوم الضيق .

تطلع إلى كثرة أعدائى (الأشرار) وخلصنى من أيديهم ، فإلى أين يهربون من وجهك ، أولئك الذين يمقتونك ؟ ! أما أنا فبك أحيا فيك .

لقد اختبروك يا إلهى ومع هذا تركوا عونك ، فصاروا محتقرين .

لقد تقاسموا ثوب الفضائل المجيد الذى أنت زينته لى .

لقد شقوا لهم فى السوق طريقـــاً نحوى ، ووطئوا على بأقدامهم .

بربط الخطية دنسوا هيكلك الذى أنت قدسته فى داخل نفسى .

ملأونى كآبة وسحقوا نفسى بالمرارة .

أما انا فسلكت على منوالهم ... صـــرت أعمى وعرياناً ومقيداً بر باطات الشر .

هم جذبونى نحو دائرة الرذيلة المرهبة والوحل . أما أنا فوقفت خانعاً، وأثقلت احمالى التى على .

صرت عبداً ، وأحببت عبوديتى .

انى أعمى ، وفرحت بعماى .

انى لم ارتعب من ثقل قيودى . بل ظننت مرارة الخطيئـــة حلاوة ، وحسبت الحلاوة مرارة .

يا لى من شقى !! يا لى من جاهل !! فقد إنتابنى هذا كله لأنى لم أكن معك أيها الكلمة الإلهى . فبدونك لايكون اشىء وجـــود . أما بك فيبقى كل شيء محفوظاً فى وجـــوده . وخارجاً عنك يعود ثانية إلى عدم ...

بك تحافظ كل المخلوقات على وجودها ، ما فى السماء وما على الارض وما فى البحـــر ، وما فى جوف الأرض .

أيها الكلمة ... ليتنى ألتصق بك ، ففيك يكون حفظى . ففى كل مرة لا اكون فيها أمينا لك ، اصير دماراً لايرجى منه .

أنت خلقتنى ، فلتتكرم وتعيد خلقى ،

أنا اخطأت ، فلتفتقدنى ،

أنا سقطت ، فلتقيمنى ،

أنا صرت جاهلا ، فلتحكمنى ،

أنا فقدت البصر ، فلتعد لى النور .

اغسطينوس

+ + +

خاتمة

والآن يا إلهى ها قد فسدت حياتى وصرت محتاجاً إلى من يغير طبيعتى ويدفع عنى موتى فماذا تفعل من أجلى أيها الحب المطلق ؟ !

(هذا هو موضوع الباب الثانى)

† † †

من كتابات الآباء القديسين

١ - الحب المقدس

الجزء الأول : الحب الأخوى

الجزء الثانى : الحب الرعوى

الجزء الثالث : الحب الإلهى

ا - الله فردوس نفسى

(تحت الطبع)

ب - الله مخلصى